حسنى سيد لبيب

الخفاجي ... شاعرا

بتصدير للمفكر العربى الكبير الأستاذ
البشير بن سلامة
وزير الشئون الثقافية فى تونس ـ سابقا

رابطة الأدب الحديث

إهـــــداء

- إلى الأســتاذ الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى

نهدى باقة حب ..

- نهدى هذا الكتاب ..
- غيضا من فيض عطائه الأدبى .

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير بقلم
الكاتب والمفكر الكبير الأستاذ البشير بن سلامة
وزير الشئون الثقافية الأسبق فى تونس

ليس من اليسير الكتابة عن الدّكتور محمّد عبد المنعم خفاجى فى هذا المجال الضّيّق لإبراز مسيرته الأدبيّة والفكريّة والثّقافيّة طيلة عقود طويلة أصبح من خلالها ، على مرّ الأيّام ، وجها من وجوه مصر المشرقة المشهورة فى بلده وفى العديد من الأقطار العربيّة . ولا غرو فقد قال عنه زكىّ أبو شادى : « **إنّه ظاهرة فذّة فى تاريخ الثّقافة العربيّة** » .

وليس من السّهل الإلمام بسعة ما دوّن وما كتب وهو الّذى نشر ما يربو على الخمسمائة كتاب ، شعرا ونثرا ، عدا المخطوط ، تناول فيها بالدّرس والبحث فنونا من الأدب والفكر والثّقافة . فقد كتب فى الدّين وفى التّاريخ والأدب والنّقد والتّفسير والحديث والبلاغة والنّحو واللّغة وغير ذلك من المواضيع الّتى يطول ذكرها ؛ وقد تولّى عن جدارة الإلماع إليها بالدّراسة الوافية مؤلف هذا الكتاب .

ولكنّ محمّد عبد المنعم خفاجى ليس ذاك الأديب والشّاعر الغزير التّأليف ، المعزول عن الدّنيا ، المتفاعل أو المأزوم أمام الورقة البيضاء فقط، إنّه الإنسان بأبعاده المتعدّدة ، وإنّه رجل الفكر التّائق إلى الإرتباط بالحياة فى أسمى معانيها .

هو الإنسان يشعرك عندما تلتقى به ، حتّى لأوّل مرّة ، بعفويّة تنبع من الفؤاد فتنفذ إلى قلب محدّثه ، ويبهرك ببساطة فيها سموّ ضارب فى

أعماق الشّعب المصرىّ ، وفيها آثار الكفاح من أجل العيش والاستماتة فى سبيل العمل الفكرىّ ، ولو كان ذلك بوسائل لا تدعمها أيّة جهة مرموقة . هو بذلك أنموذج من روح الشّعب المصرىّ ، الفوّاحة إنسانيّة ، النّاطقة بعبء حضارات تركت بصماتها ، لينا ومرحا ودماثة أخلاق ولطف معشر.

هو أيضا رجل الفكر ، الشّاعر بدوره كمصرىّ معتزّ بحضارته ، وفىّ لثقافته ، مرتبط بمجتمعه أشدّ الارتباط ، ولكنّه مع ذلك ، كما قال المستشرق المجرىّ جرمانوس « كثير الصّراحة ، كثير السّخط على محسوبيّات الرّؤساء » ؛ وإن هو لا يميل إلى جعل الفكر بابا لتصفية الحسابات ونصب العراك والخصام . وهو إلى ذلك مؤمن بأنّ دوره كمثقّف لا يملى عليه أبدا التّقوقع والانكماش، فتراه لا ينى يعمل فى رابطة الأدب الحديث على الانفتاح على سائر الشّعوب العربيّة ، يحتفل بهذا الشّاعر أو يقيم ذكرى لهذا الأديب سواء كان من العراق أو السّعوديّة أو تونس أو غيرها.

لقد فهم محمّد عبد المنعم خفاجى ، ربّما أكثر من غيره من المصريّين أنّ عظمة مصر ليست فقط فى إشعاع عباقرتها على سائر الأمّة العربيّة بل فى احتضانها لأفذاذ هذه الأمّة مثلما فعلت جماعة أبولّو مع أبى القاسم الشّابّى وعملت الكثير من الأوساط المصريّة على تبّنى أفذاذ أصبحوا منها وإليها .

هذه هى الصّورة البارزة الّتى يتركها محمّد عبد المنعم خفاجى فى ذهن كثير من التّونسيّين ، صورة المحرّك النّشيط ، مع ثلّة من الأدباء ، لرابطة الأدب الحديث ، سليلة جماعة أبولو ، ، وهى الرّابطة الدّائبة على ربط الصّلات الثّقافية بسائر الأقطار العربيّة .

البشير بن سلامة

كلمات .... للخفاجي

لقد سار العشب الأخضر عندى يحمل معنى الحياة ، كم صرت أبكى عندما تطؤه قدماى عن غير عمد منى .

***

الجهاد فى سبيل الأدب يشبه الحب ... والحب خالد لا يموت .

***

تغيب بعد غد شمسى وبعد غد يُطوى لوائى ، ولا يبقى سوى أدبى

***

ما على مثلى أن يصاب ويشقى خلقت لى حوادث الدهر خلقا

ملامح الشخصية

فى عام ١٩٧٧ ، أهديته كتابا ألفته بالاشتراك مع صديقى الدكتور حسين على محمد ، عن الشاعر خليل جرجس خليل ، ففوجئتُ برده الفورى ، يشكرنى على هديتى ، وكان وقتذاك عميدا لكلية اللغة العربية بأسيوط . دُهشت لرده الفورى حيث لم أعهد ذلك من كبار الأدباء ، وكان كتابى هذا هو الأول ، فأعظمت الرجل وأكبرتُ صنيعه . وحين التقيتُ بالصديق التونسى رشيد الذوادى عام ١٩٨٠ . حين زار مصر لأول مرة ، طلب منى لقاء بالدكتور خفاجى ،فصحبته الى رابطة الأدب الحديث ، وهناك التقينا بشيخ الأدباء وبصفيه الدكتور عبد العزيز شرف . ،تجاذب معنا الحديث بتواضع جم ، ورفع من مقامينا ! . . وكان الأجدر اكباره هو . . وكان لسان حالنا يقول مع الشاعر محمود غنيم فى كلمة ألقاها فى حفل تكريم للخفاجى . « يطيب لنا أن نكرم تواضع الرجل ، (١) . التواضع صفة من صفات شخصية الخفاجى ، وهو دائم الترحاب بضيوفه مما يدل على انسانيته ومعدنه الأصيل . . يقول محمود غنيم فى تواضعه (٢) :

متواضع ما قام يعلن ... ذات يوم عن جنابه
الله يعلم لم أجامله ... بمدحى أو أحابه
فخصومه اعترفوا له ... بالفضل أكثر من صحابه
سر يا خفاجة لا عدمتك ... فى طريقك غير آبه

وفى إحدى حفلات تكريمه ، تحدث الدكتور محمد سعاد جلال عام

---

(١) د . زهران محمد جبر : صفحات من الفكر المعاصر – ص ١٣١ نقلا عن كتاب ماجد خفاجى (فصول من الفكر المعاصر) – ص ١٥ .
(٢) المصدر السابق – ص ٣٨ .

١٩٥٨ ، عن صاحب الموسوعات الكثيرة ، اذ ما ان ينتهى من قراءة كتاب له حتى يعطيه آخر . فقال له ابنه : لماذا لا تكتب مثلما يكتب الخفاجى ؟ فأجابه : بنّى أنا من تلامذة الخفاجى وأنّى للتلميذ ان يلحق بأستاذه ؟ (١).

ينتمى الخفاجى إلى التيار العربى الاسلامى الذى يرى فى التقريب أو التوجه إلى الثقافة الغربية ، واغفال ينابيع الثقافة العربية ، جورا على ثقافتنا العربية الأصيلة . واذا سلمنا جدلا بأن الغرب يتجه إلى الشرق طمعا فى خيراته ، مستهدفا اذابته فى ثقافته المادية ، فنحن قادرون بثقافتنا العربية على صنع حضارة انسانية راقية . يقول الدكتور خفاجى فى معرض حديثه عن الأدب الاسلامى : « ان ادبنا لا بد وأن يعبر عن نزعتنا الاسلامية الرفيعة ولا بد أن يكتسى بطابع اسلامى مميز . ففى ذلك كله صورة الماضى والحاضر والمستقبل وفيه الأمل المنشود الملهم للغد المشرق .ويرفض الشباب المسلم هذه الدعايات الغربية الممقوتة التى يريد الأعداء من خلالها تحطيم معنوياتهم وأن يبعثوا فى البلاد العربية شعورا عميقا بأن العالم الاسلامى مدين فى القديم للثقافة اليونانية ومدين فى الحديث للثقافات الغربية » (٢) .

يولى عنايته واهتمامه بكتب التراث ، ايمانا منه بأن تراث الأمة يعبر عن أصالة حضارتها وشخصيتها المتميزة ، وهو المنجم الحضارى الذى تستمد منه أصولها وخصائصها. وقد قامت على هذا التراث حضارة ازدهرت اكثر من ألف عام ، وعلى أصوله قامت الحضارة الأوربية الحديثة. والتراث الأدبى هو غذاء كل الشعب ، به يتشكل وجدانه «بكل القيم الرفيعة الحية

(١) د. زهران محمد جبر : صفحات من الفكر المعاصر – ص ١٣٨ .
(٢) خفاجى : من صحائف الذكرى – ص ٣٩ .

المؤثرة فى أخلاق الجماهير وسلوكهم وأذواقهم وحياتهم»(١). والتفريط فى هذا التراث الأدبى ، يقطع صلتنا - على حد قوله - بالقرآن الكريم ، والحديث النبوى الشريف ، ويمكن للهجات العامة ، التى تؤدى الى التمزق الثقافى. بل أن التقدم العلمى يزدهر بالعناية بالتراث. . «ولا ريب أن الشعوب المتقدمة تكنولوجيا وحضاريا هى التى حققت النسب العالية من الثقافة ، ومن الافادة من التراث»(٢) . ٣

وانتماء الخفاجى لجذوره العربية والاسلامية ، هو الحافز القوى لتحبير مئات الكتب . وقارئ العناوين - مجرد العناوين - بفتح نافذة يطل منها على هذا الانتماء . ومن القول الذى تردد عنه ، بحثه الدءوب فى(الدوحة الخفاجية) التى ينتمى اليها ، ونبشه فى الجذور الممتدة فى الزمان والمكان . . فكتب عنها (بنو خفاجة وتاريخهم السياسى والأدبى)، وصدر من هذا المؤلف تسعة أجزاء . وكتب (الخفاجيون فى التاريخ) و (الدولة الخفاجية فى التاريخ) . . زد على ذلك كتابته مسرحية تاريخية بعنوان (نشيد الصحراء) عن الشاعر الأموى توبة الخفاجى المتيم بحب ليلى الأخيلية . . والبحث عن الجذور والأنساب ، هو اعتزاز بالانتماء والجذور . . ويتجلى فى كل ما كتب دفاعه عن العروبة والاسلام . وفى كتاباته ، يبرز دور العرب وزيادتهم .

ونقف - على سبيل المثال - عند دراسته عن اكتشاف المسلمين للكهرباء . وهى معلومة جديدة بالنسبة لى ، رغم تخصصى فى الهندسة الكهربائية . الا أن المعلومة شدتنى وعجبت لحال العرب ، حيث تطمر ٤

(١) خفاجى : من صحائف الذكرى - ص ١٠٢ .
(٢) المصدر السابق - ص ١٠٣ .

جهودهم ، وزيادتهم ، وأياديهم ، ويبرز الغربيون ، وجهودهم فى شتى المجالات . ومن هنا تتحقق المقولة بأن الغربيين اقتبسوا من العرب وأخذوا عنهم ، فى عصور ازدهار الحضارة العربية ، ما بنوا عليه وأسسوا به حضارتهم الحديثة . وأحيل القارئ الى هذا الموضوع وعنوانه (المسلمون اكتشفوا الكهرباء) (١). ورغم أن دراسة خفاجى واهتمامه بعيدان عن هذا الموضوع المتخصص ، الا أنه انبرى يكتب فيه ليجلو الصدأ الذى رَان على العقول ويؤثر على حاضرنا، باصرارنا على التلقين العلمى المنقول أو المأخوذ من الغرب دون تمحيص وتدقيق ، ودون أن تواكبه اطلالة معرفية على ما خلفه أسلافنا من كنوز العلم والمعرفة .وبذلك يكون المخترع المسلم القديم ، أسبق من العالمين الايطاليين فولتا وجلفانى فى هذا المضمار .

تتكامل المعرفة عند الخفاجى ، وليست قاصرة على تخصص يحصر الكاتب نفسه فى مجاله ، دونما اطلاله على فنون وعلوم أخرى . وتكامل المعرفة سمة يتميز بها المثقف عن غيره من المتخصصين . وحين تطرق الخفاجى الى اكتشاف المسلمين للكهرباء ، شرع يراعه يكتب فى ثقة ، بأسلوب علمى متأدب ، بما يناسب الموضوع ، دون اخلال بالحقائق العلمية. . لذا فاذا ما وصفناه بأنه الأديب الموسوعى ، لم نحد عن جادة الصواب ، وما أوردناه كان غيضا من فيض ، ومثالا لا حصرا ، ويحسن الرجوع الى مؤلفاته المختلفة كثيرة العدد ، والى مقالاته ، ودراساته فى الدوريات ، والتى يضيق المجال عن حصرها .

وغيرة الخفاجى على الثقافة والحضارة العربية ، لا تؤسس حكما بأنه

(١) خفاجى : فى آفاق الفكر الاسلامى ـ ص ١٠ / ١٢ .

غير منفتح على الثقافات الأجنبية ، بل هو يشجع على جوار الحضارات ، فالى جانب اهتمامه بالتراث القديم ، يؤمن كذلك بضرورة الانفتاح على الثقافات الأخرى ، قديمها وحديثها ، على أن تستوعب ثقافات الشعوب جميعها ، ولا تكون قاصرة على ثقافة أجنبية واحدة ، لذا لابد من الاتصال بالروائع الأجنبية ، وعقد صلات بين الأدب والآداب الأخرى .

كما ينبغى دراسة الآداب الشرقية عامة والعربية خاصة عند جميع الشعوب التى يتصل تاريخنا وحياتنا بحياتها ، ولعل الأديب روكس العزيزى قد أصاب حين وصفه بقوله : « الخفاجى واحد من هؤلاء الأفذاذ الذين وقفوا على ماضى الأدب العربى وقوف فهم وتعمق ودراسة ، ورافقوا جديده، فكانوا من خير مجدديه ، فهو يجمع بين دقة العالم ، وصفاء ذهن الباحث ، وقدرة الكاتب المجيد ، وروح الشاعر المرهفة »(١) .

وهناك أمثلة كثيرة تكشف نزوع الخفاجى الى التجديد وتشجيعه له ، لكننا نحصرها فى مثال واحد ذكره الشاعر ابراهيم شعراوى فى حفل تكريم أقيم للخفاجى عام ١٩٥٨ ، حيث تحدث عن تجربته الشعرية هو وزملائه الشعراء محمد الفيتورى وجيلى عبد الرحمن وتاج السر ومحى الدين فارس .. فغنى شعراوى وقتذاك للنوبيين ، وأنشد الفيتورى لأفريقيا ، وترنم جيلى بذكريات الصبا فى شمال السودان ، وكان تاج السر يصرخ من الأبيض ، وتحدث محيى الدين فارس عن فقراء دنقلة وقصر العمدة والمتناقضات .. وكان الخيط الذى يربط الشعراء الخمسة معا ، هو الأيمان بالانسان فى نموه وانتصاره وابداعه . ولم يألف النقاد وقتذاك تلك الأنغام الجديدة ، فانتقدوها وهاجموها ، وقالوا : « أدب منشورات » .. « شعر طيب من

---

(١) د/ زهران محمد جبر : صفحات من الفكر المعاصر - ص ٩١ .

ناحية الموضوع ولكن الصور ليست شعرية » .. « هذه عرقية عنصرية ضيقة» . ولكن الخفاجي بتوضعه وطيبته وبعد نظره ، أتى بنماذج الشعراء الخمسة وسجل رأيه الناقد على شكل انطباعات هادئة ، وقال عن هؤلاء الشعراء الواقعيين : « هذه الكتيبة تملك قدرة الوصول الى شط النجاة » . فكان بذلك متواضعا ورائعا ، وكان - أيضا - ثاقب الرؤية بعيد النظر ، فلم يخاصم الاتجاه الجديد ، ولم يهاجمه ، وانما ترفق به ، وانكب يكتب انطباعاته ، يقوده ايمان بقدرة شداة الأدب على التعبير بصياغة جديدة ورؤية مغايرة . ويرى الخفاجي أن الخصائص والعناصر الفنية للأدب تكون في وضوحه وبساطته ، وفي جماله وصدقه .

ويقول عنه الشاعر أحمد أبو المجد عيسى (١)

وكم رفعت أديبا كان في ظلم　　كأنما عاش تحت الأرض في نفـق

ونحن حولك ان كنا ذوي أدب　　فالطير تمشي لفيـض المورد الغدق

والصادح العبقري اللحن يسعده　　أن يستجيب الى بستانه العبـق

يكفيك أنك في الأقطار جامعة　　تزود الفكر بالأضـواء والألـق

وتصفه الشاعرة جليلة رضا فتقول (٢) .

انه كالـفجر في المسـاء الولـيد　　دائم الخلق ، دائم الـتجديد

وهو الحـق والفضيلة والصدق　　ونـور الايمـــان والتوحـــيد

(١) المصدر السابق - ص ٨٣ ، نقلا عن مجلة (الرائد) السعودية - عدد ٢٨ / ٨ / ١٩٦٠ .

(٢) خفاجي : من صحائف الذكرى - ص ٢٩٢ .

وهو العلم والبلاغة والنبل ورمز الاجلال والتمجيد
وهو كالطفل فى سماحته الحلوة فى قلبه الشفيف الودود
بسمة كالندى ووجه صبوح واتضاع فى عزة وصمود
فاذا هم بالحديث فاطراق العذارى وحكمة ابن الوليد
قلم عاشق وطرس عشيق وبيان يفى بكل الوعود
هكذا يذرع الوجود خفاجى بين بحث وفكرة وجهود
فهو فخر الكتاب فى عصرنا الحاضر رمز البقاء والتخليد
وأبو المجد والعلا للخفاجيين من قبل ومن قديم الجدود

***

الخفاجى الشاعر

ربما طغت الجوانب الفكرية والتراثية والدينية على الجانب الشعرى ، رغم أهميته ، مثلما طغى فكر عباس محمود العقاد على شعره ، رغم تميزه وكونه الشاعر الأول فى مدرسة الديوان (١) . وهذا ليس ذنب الأديب الموسوعى المتعدد المواهب والاهتمامات ، بقدر ما هو ذنب النقاد والكتاب ذوى النظرة الأحادية فيأخذون من الأديب جانبا واحدا ، ويغفلون جوانب أخرى . والخفاجى الشاعر « من أعمدة مدرسة أبوللو التى تنادى بأن الشعر عاطفة ووجدان وأنه تعبير عن الذات » . و « بدأ نظم الشعر فى الخامسة عشرة من عمره ونشر بعض قصائده فى الأهرام والجهاد وهما الصحيفتان الكبيرتان آنذاك » (٢) .

ونظرا لصعوبة الحصول على بعض دواوين الخفاجى ، لنقادها ، وعدم توافر نسخ منها لديه نفسه ، لذا جمعنا ما استطعنا الحصول عليه . . وقد لاحظنا اهتمام المؤلف باصدار مجموعات صغيرة وننقل هنا اصدارات الخفاجى الشعرية (٣) كما أثبتها فى مؤلف (من تراث مصر الاسلامية) الصادر عام ١٩٩٦ ـ وهو آخر ما صدر له ـ وقت كتابة هذه السطور ـ ونلاحظ فى السرد ، عناية صاحبه بتدوين تواريخ الصدور . وقد بلغت هذه الاصدارات ستة عشر ، وهى :

(١) خفاجى : من صحائف الذكرى ـ ص ٢١٢ .

(٢) المصدر السابق ـ ص ٤١ .

(٣) نشر مختارات من أشعاره فى كتب كثيرة ، منها : (الشعر والتجديد) ، (مع الشعراء المعاصرين) (بنو خفاجة وتاريخهم السياسى والأدبى ـ جـ٥) ، (الخفاجيون فى التاريخ) ، (من روائع الأدب) ، (مواكب الحياة) ، الأزهر فى ألف عام .

١) وحى العاطفة (١٩٣٦) .

٢) نشيد الصحراء (مسرحية شعرية طبعة أولى ١٩٤٧ وثانية ١٩٨٨).

٣) أحلام الشباب (١٩٤٩) .

٤) أحلام السراب (١٩٦٩) .

٥) الديوان الاسلامى (١٩٧٢).

٦) نغم من الخلد (١٩٧٣) .

٧) صلوات على الضفاف (١٩٨١) .

٨) أشواق الحياة (١٩٨٣) .

٩) أغنيات من عبقر (١٩٨٤) .

١٠) نشيد الذكرى (١٩٨٧).

١١) ملحمة السيرة النبوية الخالدة (١٩٨٨).

١٢) أحلام المساء (١٩٨٨).

١٣) أصداء الذكريات (١٩٨٩).

١٤) أحلام الذكرى (١٩٩٠).

١٥) أحلام الأمس (١٩٩٠).

١٦) أنشودة الى الغد (١٩٩٥).

الى دواوين أخرى لا تزال مخطوطة لم يواتها الحظ بالنشر بعد

هذه حصيلة ابداعاته الشعرية فى رحلة عمرها ستين عاما منذ صدور ديوانه الأول (وحى العاطفة) . الا أن مؤلفاته فى فن الشعر ، وموسيقاه ، وأوزانه ،وعروضه، وأصوله الفنية ، عديدة ووفيرة ، والدواوين التى حققها عديدة ، منها : ديوان الامام الشافعى ،وديوان الامام على ، وديوان حماسة أبى تمام. كما حقق كتاب (متن الكافى فى العروض والقوافى).والمكتبة الخفاجية - عموما - ثرية بمؤلفاتها فى شتى فروع الأدب والشعر والتاريخ والدين . . وقد أردت هنا الاشارة الى دواوينه الشعرية ، وما كتبه عن فن الشعر ، وما حققه من كتب الأقدمين . ومؤلفاته فى مجال الشعر وحده ، تضعه فى مكانة سامقة فى مجال الشعر ، الاأن اهتماماته فى فنون الأدب والفكر الأخرى، جعلت شهرته فى التآليف الفكرية والتاريخية والتراثية تطغى على شهرته كشاعر. والمثل أوردناه للعقاد المفكر والشاعر . وأيضا طغت شهرة الشيخ محمد متولى الشعرواى فى تفسير القرآن العظيم على تآليفه الشعرية ، وانقطع متفرغا لتفسير الكتاب الكريم.

وهناك أمثلة كثيرة لغلبة الجانب الفكرى على الابداعى ، نجدها عند الشاعر محمد عبد الغنى حسن عرف ببحوثه وعرف أيضا باشعاره كما أن الشاعر أحمد خميس عرفه الناس ممثلا ، ولم يقرأ أشعاره الا القليل منهم. وهناك قصائد للممثل الراحل عبد الوارث عسر ، والفنانة رغدة .

وللخفاجى مؤلفات تعد بالمئات فى الأدب والفكر ، وفى اللغة والدين، وفى التاريخ الاسلامى ، وفى تحقيق كتب التراث ، وفى مجالات أخرى . الا أننا نقف عند ابداعات الخفاجى الشعرية، ونخصها بالدراسة والتحليل .

آراء الخفاجي في الشعر

يرى الخفاجي أن الشعر عاطفة ووجدان ، وأنه تعبير عن الذات . وانطلاقا من هذا المفهوم لا ينظم الخفاجي أشعاره في أي وقت ، وانما يتحدد وقت الكتابة عندما يجئ الالهام ، فالالهام يملي على الشاعر ما يقول. لذا فان الخفاجي بعيد كل البعد عن صنعة الشعر التي يتقنها الصانعون ، قريب من دائرة الابداع الذي يتقنه الموهوبون . فالشعر يفرض نفسه على الشاعر . حتى صياغته لأشعار المناسبات ،تسبقها عاطفة مشبوبة تملي عليه الأبيات املاء ، نلحظ ذلك في سلاستها وصدقها . وفي مقولته بأن الشعر عاطفة ووجدان وتعبير عن الذات ، يتلاقى مع مدرسة الديوان التي تضم الأفذاذ عبد الرحمن شكري وعباس محمود العقاد وابراهيم عبد القادر المازني، والتي نادت بأن الشعر وجدان ، بمعنى انه تعبير عن ذات الشاعر وأحاسيسه ومشاعره . لذا يتوجب على الشعر الخروج من اطار المناسبات، وينطلق معبرا عن النفس الانسانية . . وتلك لعمري هي الآفاق الرحيبة للشعر . لذا لا نرى بأسا من القول بأن الخفاجي الشاعر من أتباع مدرسة الديوان. فالمعاناة هي التي تولد شعرا راقيا ، معبرا بلغة الصدق الفني، وقد حدد الدكتور خفاجي مذهبه الشعري في مقولته : « بساطة الأسلوب . . والطلاقة والأصالة مع الحرص على الموسيقى والحركة ووحدة التجربة » (١).

ويقول عن الشعر الفلسفي : « والشعر الفلسفي نجده عند أبي العلاء وهو يتأمل الحياة والكون والوجود. ولكن قلما نجد شاعرا فيلسوفا يتحدث كما تحدث ابن سينا عن النفس في قصيدته التي يقول فيها :

(١) خفاجي : من صحائف الذكرى ـ ص ٤٥ .

هبطت اليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تـعزز وتمـنع

والشعر الفلسفى حقيقة يخرج عن جوهر الشعر اذا سرنا على المعنى الكامل لكلمة فلسفة ، الا أننا أجريناه على شعر التأملات والحكمة كما نجد عند شوقى وأبى تمام والمتنبى ، فلكل شاعر تأملاته ونظرته الى الحياة»(١).

ويهاجم الشعر الحر ويناصبه العداء ، وان كان يتمثل جودته عند بعض الأصلاء كنزار قبانى ونازك الملائكة والسياب . وفى هذا يقول : « لا أومن بالشعر الحر لأسباب كثيرة أوردتها فى أحاديث ومقالات ودراسات طويلة . فهو لا يمثل المشاعرالعربية ، ولا يمثل حركة الفكر والازدهار الفنى فى الشعر المعاصر وليس فيه الموسيقى التى تهز القلوب وتثير العواطف ، وليس له حظ من القافية ، فهو لا يقوم على أصالة أو ابداع فنى، انما يرجع الى محاولة للافلات من قيود الشعر والشاعرية وهربا منها. أما ايجابياته ، فلا أعد لايجابياته جودة تذكر الا عند بعض الأصلاء من أمثال نزار قبانى ونازك الملائكة وبدر شاكر السياب وفدوى طوقان . وأما سلبياته فكثيرة وأكثر الذين نظموا منه نظموا الشعر العمودى وكان شعرهم العمودى أكثر ايجابية وتأثيرا وروعة » (٢) .

ويقول عن الشعر الحر أيضا : « لا نستطيع أن نقول ان الشعر الحر يمكن أن ينهض برسالة الشعر والشاعر ، ويهز وجدان الجماهير ويؤثر فيهم، الا أنك تقول انه تأملات فكرية يكتبها الأديب بأسلوب أقرب الى عاطفة الشاعر والى فكره . الا أنه لا يأخذ شكل الشعر . . ولا يمثل قيمته الفنية . قد يحتوى على بعض الأفكار والمضامين القريبة الى مضامين الشعر

(١) المصدر السابق ـ ص ٤٢ ، ٤٣ (٢) خفاجي : من صحائف الذكرى ـ ص ٤٢ .

وأفكاره الا أنه لا يحمل روح الشعر وجوهره. .والا لساغ لنا أن نقول عن المسرحية انها قصة وعن القصة انها مسرحية » (١) .

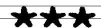
وفى مختتم أحد دواوينه ، يعرف بالديوان وينتصر للشعر العمودى فيقول : هذا الديوان فى مضمونه يمثل فكرا متحررا من أغلال التبعية والحداثة، مرتبطا بالأصالة والتراث ، مسايرا لفكر البعث الروحى الأكبر ، وهو فى شكله يمثل نسيجا متحررا من أغلال القيود الفنية التى تخاصم أصول العمود الشعرى مع الحرص على الوحدة العضوية للقصيدة ، وعلى العاطفة الصادقة ، والتجربة الشعرية ، وعلى كل أصول العمودية والمعاصرة معا . ومن حيث المذهب فهى تمثل ارتباطا وثيقا بين العمودية والرومانسية، انها الرومانسية الجديدة التى تجمع بين الوجدان الشعرى وروح المعاصرة المتجددة المبدعة » (٢) .

عطاؤه الأدبي والفكري :

للدكتور خفاجى ما يزيد على الخمسمائة كتاب ، وان كنا لا نستطيع حصرها بالضبط . وفى احدى ندوات رابطة الأدب الحديث عام ١٩٩٥ ، انبرى أديب يتحدث عن مؤلفات الخفاجى ، بمناسبة تكريمه لبلوغه الثمانين، فقال أنها ربما وصلت الآن إلى ألف مؤلف ، وفى ختام كلمته توجه الى الدكتور / خفاجى يسأله عن عدد مؤلفاته بالضبط ، فقال : اننى لا أذكر العدد . وهذه المئات من الكتب ، تضم كتبا محققة من التراث ، وكتبا اسلامية وتاريخية ،وتراجم أدبية ،ودراسات فى الأدب والشعر والبلاغة العربية ، وقد نشر دراساته الأدبية وابداعاته الشعرية فى معظم المجلات والصحف المصرية والعربية ،نذكر منها : الهلال والرسالةوالعربى والثقافة

(١) المصدر السابق ـ ص ٤٤ . (٢) خفاجى : ديوان (احلام المساء) ص ١١٣ .

والآداب والأديب وقافلة الزيت والفيصل والمجلة العربية والمنهل وغيرها . وله مئات الأحاديث الاذاعية والتلفزيونية . كما أشرف على الكثر من الرسائل الجامعية ، فى الأدب والنقد بجامعات الأزهر والقاهرة والاسكندرية ومعهد الدراسات الاسلامية . ويكفى أن نذكر للشاعر الاسلامى مواصلته النشر فى الدوريات منذ عام ١٩٤٠ وحتى الآن ، بهمة الفارس وشجاعته ، وحماس الأديب صاحب الرسالة والضمير اليقظ . لم يكل قلمه . دائب العمل ، مثابر ، مؤمن برسالته ، متفان فى أدائها . وكان الحصاد هذا الكم الهائل من نور المعرفة ووهج الفكر ، يدعمه ايمان يعمر قلبه ، وتفاؤل بالحياة ، واعتزاز بترات أمته وتاريخها المجيد .



خصائص فنية للقصيدة فى شعر الخفاجى

يعتمد البناء الفنى للقصيدة على جملة خصائص فنية يتميز بها الشاعر، وتحدد مقومات التجربة الشعرية ،وهى الخصائص الغالبة على شعره، وتشكل قاسما مشتركا لكل ابداعاته الشعرية . لذا ، لا تعنى تلك الخصائص ديوانا بعينه ، أو قصيدة بذاتها ، أو فترة ما من فترات عمره الأدبى ، انما هى خصائص غالبة ، بارزة ، تحدد شخصية الشاعر وثقافته ، واتجاهه الأدبى .

وبناء القصيدة الخفاجية ، تتحدد معالمه فى جملة عناصر فنية ، تظهر واضحة جلية فيما نقرأ من أشعار ، وتتحدد أهم هذه العناصر ، أو المقومات، الفنية فى الآتى :

١ ـ تكرار اللفظ والمعنى

٢ ـ التساؤلات

٣ ـ استدعاء أمجاد الماضى

٤ ـ مفرداته الشعرية زاخرة بالرموز الدينية

٥ ـ استخدام أسلوب النداء

٦ ـ تعدد الوصف

ونورد فيما يلى تحليلا لكل عنصر من عناصر الست السابقة .

أولا : تكرار اللفظ والمعنى :

يضع الشاعر نصب عينيه أثر التكرار فى احداث موسيقى الشعر ،

علاوة على الأوزان والقوافى ، أو النسق العمودى فى نظم الشعر . كما لا يغيب عن بال الشاعر ما للتكرار من غنائية محببة لدى المتلقى ،لذا يعمدالى التكرار ، راسما به دائرة أشواق تربطه بالمتلقى وتحقق التجاوب المنشود .

ومن أمثلة التكرار اللفظى ، نطالع فى مستهل قصيدة (حلم فى الضحى) (١) هذين البيتين :

مضت السنون ومـرت الأيـام   مـرت كـأن طيوفـها أحـلام

وسمعت صوتا ما أعز صداه فى   أذنى ، وعاد وعـادت الأيـام

فى البيت الأول يكررالفعل (مر) وفى الثانى يكرر الفعل (عاد) . والتكرار هنا يسلط شعاع ضوء على كلمة بذاتها ، للدلالة والتوكيد على الرمز والمعنى . فيكرر الفعل (مر) ليقف عند انقضاء العمر سريعا ، والفعل (عاد) يقابل الأول فى المعنى ، فكما مرت الأحداث وانقضت ، فالصوت الذى سمعه يعيد اليه ذكريات الأيام الماضية ، والعهود الجميلة ، فيعمد الى تكرار الفعل الثانى ، ليسلط شعاع ضوء ثانيا ، ويحقق مقابلة فنية بين الفعلين ، بما يهيئ المتلقى لاسترجاع الماضى معه . وهذا التكرار اللفظى موظف توظيفا فنيا . ولو حذفنا التكرار للفعلين (مر) و(عاد) ، تفكك البناء الفنى وضعف . من هنا تتضح أهمية التكرار وضرورته فى بناء القصيدة ، ناهيك عن أهمية ثانية لتكرار الفعل (عاد) ، حيث جاء فعلا لجملتين : عاد الصوت ـ عادت الأيام .

وتكرار لفظى آخر نورده ضمن أمثلة للاستشهاد ، لا الحصر ، فى قصيدة (أغنية الى عرفات) (١).

---

(١) خفاجى : الديوان الاسلامى ـ رابطة الأدب الحديث بالقاهرة عام ١٩٧٢ ـ ص ٣٢ .

حيث يكرر الاسم (عرفات) فى مطلع الأبيات الثلاثة الأولى من القصيدة:

عرفات . يا أمـلا بـه الأيـام تحلو . ومنه الوحـس والالـهام
عرفات والجبل المقدس شـرعة للمـسلمين . وكـعبة ، وذمـام
عرفات أنت العطر يعبق والهدى والمجد ، والأنـغام ، والإحـلام

والرمز الدينى لجبل عرفات هو المقصود بالتكرار ، فى قصيدة يصوغها أغنية دينية الى عرفات ، حيث شعائر الحج ومناسكه . واذا تغنى الانسان متطلعا الى أمل كبير ومعنى عظيم ، طفق يكرر الاسم المنشود، فى زهو ووجد وشوق .

عرفات . . ما أعظمه اسما ، ورمزا ، ومعنى ، أليس عرفات ـ كما قال الشاعر ـ هو الأمل ، والعطر والمجد ، والأنغام ، والأحلام ؟ فجاء التكرار لاسم الجبل المقدس معبرا عن أهميته وغظمته ، وراسما دائرة شوق تربط المسلم العابد بخالقه .

ويكرر الشاعر كلمة (وطنى) فى قصيدة (وطنى مصر) (١) أربع عشرة مرة ، علاوة على عنوان القصيدة ، والقصيدة كلها ثلاثة وثلاثون بيتا. ويكرر فعل الأمر (عش) أحد عشر مرة ، والفعل (سأعيش) ثلاث مرات بصيغة المضارعة وضمير المتكلم . ويكرر حرف النداء (يا) تسع عشرة مرة . . وظاهرة التكرار شائعة فى هذه القصيدة ، ووصل بالتكرار الى مداه فيكرر كلمة ما أربع مرات فى البيت الواحد ، مثل قوله :

عـش فى الدنـيا تنهى وتأمر عش عش عش يا وطنى الأكبر

---

(١) خفاجى : أنشودة الى الغد ـ رابطة الأدب الحديث بالقاهرة عام ١٩٩٥ ـ ص ٥ ، ٦ .

وطنى حبى ، وطنى الأكبر   وطنى حبى ، وطنى الأكبر

وفى مثل هذا التكرار اللفظى نستشعر الغنائية ، الواضحة فى موسيقى الشعر أولا . وفى تكرار الكلمة ثانيا .

ويتعدى التكرار كلمة بعينها يجدها شديدة الوقع فى خاطره الى بيت بكامله . ففى القصيدة السابقة (وطنى مصر) ، يكرر البيتين الأولين أربع مرات :

يـــا أجـــمل أيامـــى   يـــا أروع أحلامـــى

يـــا مـــهد حـــضارات   خلـــدت كالأهـــرام

فتنطبع فى ذهن المتلقى صورة لوطنه ، يتمثله أياما جميلة وأحلاما رائعة . وتكرار البيت هو تكرار للمعنى واظهار لصورة الوطن الماثلة ، بالاضافة الى حرف النداء (يا) ، فالخطاب موجه للوطن ، وعلى هذا المنوال، تصاغ القصيدة كلها ، وتوجه بضمائر المخاطب ، الى الوطن ، فحبه للوطن لا يحتمل نقاشا أو جدالا مع أحد ، انها صورة عاطفية قطعية، أو هو يعبر عنها يقينا لا مجال للشك فيه .ويصل الشاعر الى ذروة الاحساس بعظمة الوطن وروعة أمجاده ، فى القسم الذى يردده .

قسما باله الســموات   بمنزل كــل الرســالات

وبربى رب الآيـــات   أن أفديك كل اللحظـات

والقسم « باله السموات » عطف عليها قسما آخر « بربى » مستخدما حرف الواو ،ولو حذفت الواو لكان القسم (بالا له) و (بالرب) والمقصود لفظ الجلالة (الواحد الأحد) . ولعل ضرورة الوزن هى التى أضافت

الواو، وهى ثقيلة هنا فى أداء المعنى، هنا قد يقع الشاعر ـ دون قصد منه بالطبع ـ فى تكرار لا يفيد .

وفى قصيدة (يا وطنى) (١) يكرر اسم (مصر) سبع مرات . والقصيدة فى مجملها نشيد وطنى يستحث الهمم ، ويؤصل معنى المواطنة الصالحة فى حب الوطن وعظمة الانتماء ، بما يجسده الوطن من تاريخ ، ومعايشة ، وطموحات ، وآمال .

والتكرار فى قصيدة (أنامصرى) (٢) حول القصيدة إلى نشيد وطنى حماسى ، يهبه قوة السبك والايجاز البليغ ، ويحقق الايقاع الموسيقى المنشود. وفى هذا ، يصح القول بأن الشاعر حين صاغ كلمات قصيده ، أدى فى الوقت نفسه دور الملحن ، فاذا بالقارئ يؤدى اللحن طواعية ، وبالمستمع تشجيه الموسيقى المؤثرة .

يستهل الشاعر البيت الأول بضمير المتكلم (أنا) يبدأ به أول شطرى البيت الأول ، ويحقق التكرار دلالته بالجملة الاسمية (أنا مصرى) . .

أنا مصرى نمانى وطنى   أنا مصرى سما بى زمنى

تكرار اسم الوطن دلالة أخرى للفخر والاعتزاز ، فيهتف باسمه ، ويكرره سبع مرات فى ثلاثة أبيات :

مصر مجـــدى ، مصر حبى الأكـبر   مصر تاريخــى وديـنى الأطـهر

مصر عاشت ، مصر عزت ، وسمت   مـصر غـــناها الورى والأعصر

(١) المصدر السابق ـ ص ٣ ، ٤ .

(٢) خفاجى : أنشودة الى الغد ـ ص ١١/ ١٤ .

مصر والنصر ولقيا موعد   عشت دنياه مني يا وطني

ويتكرر ضمير المتكلم فى جمل أخرى ، معلنا اعتزاز الشاعر بوطنه وحضارته وتاريخه ، مثل قوله : « أنا ابن حضارات » و « أنا أفديك » و «أنا أحمى الأرض والنيل» و «أنا أحمى الدار والعرض» كما يكرر «أنا مصرى» فى أبيات أخرى ، مثل :

(أنا أحمى) الأرض والنيل نضالا   (أنا أحمى) الدار والعرضَ نزالا

فيكون بهذا التكرار نسقا فنيا يضع الذات فى دائرة أوسع وأكثر أهمية. ومثل هذا النسق نجده فى تكرار كلمة (وطنى) فى أول البيت وآخره:

(وطنى) أفديك ، أفديك ، بروحى ، ومالى ، ودمى ، يا (وطنى)

والبيت :

(وطنى) عشت عظيما أبدا   عشت حرا رائدا يا (وطن)

والبيت :

(وطنى عشت على الدهر حمى   خالدا ، عشت لنا يا (وطنى)

وهذا النسق المؤسس على التكرار ، من سمات القصيدة الخفاجية .

والتكرار فى الانشاد الدينى له سحره ، مع ايقاع نغمى مكرر فى الأنشاد، يطرد من ذهن المنشد أى شرود ، ويجعله فى حالة حضور دائم يقظ، علاوة على أنه يعكس الأثر القوى البالغ للمعانى الدينية والقيم السامية. ومن زاوية أخرى ، يكشف تكرار اللفظ أو المعنى ، أو الشطر أو

البيت ، الايمان المستقر فى النفس والذى لا تشوبه أدنى شائبة ، ولا تعكر صفوه هفوات دنيوية زائلة .. مثال ذلك ما نقرؤه فى قصيدة (ملحمة الضياء) (١).

وحــده الله لا اله ســواه

وحده النور فالورى من سناه

وحده الله وحـده ، في علاه

والملاحظ تكرار كلمة (وحده) تسع مرات ، فى صورة شعرية قوية الايقاع ، قاصدا أن يترك فى النفس الأثر المنشود ، والتأكيد علي (التوحيد) رسالة الاسلام . وتمضى ملحمة الضياء ، أنشودة دينية يصوغها قلب مفعم بالايمان ، فى لحظات الصفاء الروحى مع خالق الكون سبحانه وتعالى فى علاه .

وفى خطابه الشعرى الى الامام على بن أبى طالب ، يقول فى مطلع قصيدة (سلام عليك) (٢) :

سلام عـليك ، سـلام عليك ولائى وحـبى المسكين اليك

سلام عـليك ، سـلام عليك وفائى وقلـبى الودود لديك

فى الشطر الأول ، وظف تكرار السلام توظيفا جيدا ، فأصبح الشطر الأول يحاكى الفعل (أداء السلام) والثانى يحاكى الجواب (الولاء ـ الحب ـ الوفاء) . أو أن الشطر الأول نتيجة يندفع اليها الشاعر اندفاعـــا ،

---

(١) خفاجى : أشواق الحياة ـ رابطة الأدب الحديث بالقاهرة عام ١٩٨٣ ـ ص ٢٦٥ .
(٢) خفاجى : أنشودة الى الغد ـ ص ١٥ .

والثانى كان سببا لهذا الاندفاع . فالولاء والحب والوفاء ، هى التى تدفع الشاعر دفعا ـ بحبه للامام التقى لالقاء السلام عليه .

ونفس الحب ، يهبه لسيد الشهداء الامام الحسين، فى قصيدة (سيد الشهداء الامام الحسين) (١) ، التى يستهلها بقوله :

بحب الحسين وآل الحسين　　　ملأت اليدين ، ملأت اليدين

ويتكرر البيت ثماني مرات ،ويتكرر المعنى ،ويفيض احساس الشاعر بالحب إلى الحسين وآل الحسين وفاطمة .حب امتد كشعاع ضوءساحر من حبه للامام على ،كرم الله وجهه .ويعيش قارئ القصيدة هذا الحب الغامر، فتسمو نفسه هو الآخر بالصفاء والنقاء والطهر ، ويعمر قلبه الايمان.

ويحقق الشاعر بذلك نجاحا وتميزا فى نقل الاحساس الى القارئ ، الذى يتحول الى منشد للقصيدة ، ينشدها مرارا وتكرارا ، فى جلسة امتاع روحى .

ثانيا : التساؤلات :

من أبرز سمات الشعر الجيد طرحه للتساؤلات . قد يهتم الشاعر باعطاء اجابة على تساؤلاته ، توضيحا للمعنى أو اثراء للصورة الفنية ، أو للتعبير عن حالة شعورية ، أو أنه يقصد التساؤل فى حد ذاته . وقد اهتم المسرح بطرح التساؤلات لتكثيف الخط الدرامى وتعميقه ، ولسبر النفس الانسانية ، والكشف عن آمالها وآلامها وطموحاتها . وقد اهتم الدكتور خفاجى بهذا ، اهتم به ناقدا ، وشاعرا ، وله فى مجال الشعر مسرحية أيضا. لذا فان التقنية المسرحية تشغله ، وتفرض نفسها فى نظم القصيدة .

(١) المصدر السابق ـ ٣٣ .

وفى قصيدة (وطنى مصر) (١) تساؤل وحيد يفيد الانكار :

طيبة والفسطاط والأزهـر من ؟ من بمثيلاتها يفخر ؟

والانكار هنا لعدم وجود مدينة ـ فى رأيه ـ تجرؤ على مطاولة طيبة والفسطاط والأزهر .

وفى قصيدة (النغم الحزين) (٢) وظف تساؤلاته توظيفا جيدا . ساعده فى ذلك اتجاه القصيدة نفسه ، حيث تكثف غربة الشاعر ، فلجأ الى مكاشفة النفس ، وفى المكاشفة تطرح التساؤلات التى تثرى فن الشعر ويختتم القصيدة بتساؤل يكشف بعد المسافة بين الشاعر وخيالاته ، وواقع الحياة ومفارقاتها ويستهل قصيدته (كم كانت الأحلام) (٣) بتساؤل يفيد الكثرة : « كم سهرنا الليل ننسجه حلما » و « كم كانت الأحلام تدفعنا»، والعنوان ـ أيضا موضوع بصيغة التساؤل . . وفى قصيدة (يا نجمتى) (٤) يعبر عن ذات المعنى : « كم قد حلمت بفجرنا ألقا » و « أواه يا كم بت مضطربا » . . ويستهل قصيدته عن شاعر الجندول (على محمود طه) (٥) متحسرا على رحيل أحبائه الشعراء :

سار أحبابى للضفاف وراحوا

أين مـــنى غدوهـــم والرواح ؟

أين منى وجوهـهم باســمات ؟

وباشعارهم يــضئ الصـــباح

(١) المصدر السابق ـ ص ٥ ، ٦ (٢) المصدر السابق ـ ص ٧ / ١٠ .

(٣) د/ خفاجى : أنشودة الى الغد ـ ص ٢٣ (٤) المصدر السابق ـ ص ٢٦ / ٢٨ .

(٥) خفاجى : أحلام الذكرى ـ رابطة الأدب الحديث ـ القاهرة ١٩٩٠ ـ ص ١٢٨ .

ثالثا : استدعاء أمجاد الماضي :

يعتبر استدعاء أمجاد الماضي ركيزة أساسية ومعلما بارزا فى شخصيته الأدبية ، وسمة لصيقة به ، تعبر عن ثقافته الاسلامية ، وأصالة الشعار عنده، فقد وقف د/ خفاجي عمره محققا للتراث الاسلامى ، مفسرا للقرآن الكريم والحديث الشريف ، ومبرزا أعلام الاسلام ، منقبا فى تاريخه ، فتوحاته وغزواته وانتصاراته . وهذه السمة البارزة طابع فنى يعرف به شعر الخفاجي . لهذا يحق علينا أن نصفه فى طليعة الأدباء والشعراء الاسلاميين، أمثال : على أحمد باكثير وأحمد محرم وغيرهم .

ان استدعاء أمجاد الماضى ، وخاصة الاسلامية ، هذه السمة البارزة، تبرز جوهر الشاعر ،واتجاهه الشعرى فى اتجاه الصدق الفنى،بمعنى أنه يسخر أداته الفنية فى اتجاه يرضى ذاته ويحقق به توافقا ، نفسيا. وفى وجدانياته ،وتجاربه الذاتية ،تسود النزعة الايمانية ،المتوائمة مع شعره الذى يغلب عليه تاريخ الاسلام وسيرة رسوله - ﷺ - وسير الخلفاء الراشدين والصحابة وكل الرموز الاسلامية فى القديم والحديث . وله (ملحمة السيرة النبوية الخالدة) تؤرخ للسيرة الشريفة فى ١٤٠ صفحة (١) ، وله مسرحية شعرية استوحاها من التاريخ العربى بعنوان (نشيد الصحراء) فى ٩٠ صفحة .كما قدم دراسة تاريخية وتحليلا لأبطال مسرحيته فى ٨٦ صفحة اخرى ، وجمع مادته من كتب التاريخ العربى ،المطبوعة والمخطوطة. وهذه الدراسة « أول بحث ينشر عن حياة توبة الشاعر وبطولته وقصة حياته وآثاره الأدبية وقد بذلت مجهودا كبيرا فى سبيل كتابته وتأليفه » (٢) . وفى

---

(١) د/ خفاجي : ملحمة السيرة النبوية الخالدة - رابطة الأدب الحديث ١٩٨٨

(٢) د/ خفاجي : نشيد الصحراء - رابطة الأدب الحديث ١٩٨٨ - ص ١٧٦

قصائده يبرز الاستدعاء للتاريخ ، والتراث الدينى الذى يكاد يكون قاسما مشتركا لكل ما نظم من قصيد (١) (وطنى مصر) (٢) ، ينادى وطنه أو يستدعيه ، وهو الحاضر المقيم دائما :

يـــا مــهد حــضارات خـــلدت كالأهـــرام

ويفاخر بالمدن المصرية القديمة كطيبة والفسطاط . الأولى تزهو بأمجاد المصريين القدماء ، والثانية ترمز لمصر الاسلامية كما يفاخر بالأزهر العريق ، وما له من مكانة سامية فى نفوس المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها . ويخاطب وطنه بقوله :

وتنال المـنى بالاســـلام وبطه وعيسى الأعـلام

وفى قصيدة (أنا مصرى)(٣) يفاخر بتاريخ بلاده وأمجادها وحضارتها ، ويذكر دار ابن لقمان بالمنصورة ، أيام الحملة الفرنسية على مصر ، ونصر أكتوبر المجيد عام ١٩٧٣ .

رابعا : مفردات شعرية زاخرة بالرموز الدينية :

والمثل فى قصيدة (وطنى مصر) (٤) حيث ورد ذكر طه وعيسى ـ عليه السلام ـ فى معرض افتخاره بالوطن ، وتاريخه الاسلامى والقبطى . وفى قصيدة (سلام عليك) (٥) التى خاطب فيها الامام على ابن أبى طالب كرم الله وجهه ـ ملقيا الضوء على سيرته وجهاده وشجاعته ، وتقواه وورعه

(١) لم تعتمد دراستنا هذه على دواوين الشاعر الأولى،لصعوبة الحصول عليها وهى: وحى العاطفة ، وأحلام الشباب ، وأحلام السراب

(٢) خفاجى : أنشودة الى الغد ـ ـ ص ٥، ٦ .

(٣) المصدر السابق ـ ص ١١ / ١٤ . (٤) د/ خفاجى : أنشودة الى الغد ـ ص ٥ ، ٦

(٥) المصدر السابق ـ ص ١٥ / ١٨ .

وزهده ، وذكر أبى حنيفة فى قصيدة (كم كانت الأحلام) (١) .

وأبو حنيفة ظل نصحبه   فى فقهه فى الصبح والعصر

وفى اشادته بالأزهر الشريف ، يذكر فى قصيدة (الأزهر العظيم)(٢) جوهر الصقلى والمعز لدين الله الفاطمى :

جوهر والمعز قد رفعا للـ   ـه هذا البناء لا لسواه
منذ عصر المعز لليوم والاسـ   ـلام يخطو بالحمد فوق ثراه

ويذكر الشيخ أحمد حسن الباقورى وأبا النور الأحمدى ، فى نفس القصيدة :

شيخنا الباقورى ورفقة عمر   ورواق مضوأ بالصلاة
وأبو النور الأحمدى أياد   كرمت ، نعم ما بنته يداه
وشيوخ الاسلام كانت لهم أيد   على شعبنا ، ونعم الهداه

وهو لا ينى فى كل قصيدة من ذكر رجال الدين وأفضالهم وأياديهم ، وذكر كل أديب وشاعر وعالم مشيدا بمساهمتهم فى رفع رأية الاسلام . وهذا خط استنه الكاتب الاسلامى فى شعره ، بما يتواءم مع ما قدمه للمكتبة العربية الاسلامية من مؤلفاته.

خامسا : استخدام أسلوب النداء :

وأسلوب النداء غالب فى شعره ، والأداة (يا) كثيرة الاستخدام ،

---

(١) د/ خفاجى : أنشودة الى الغد ـ ص ٢٣ .

(٢) خفاجى : الديوان الاسلامى ـ ص ٦٥ .

يستدعى بها الاسم ، أو المعنى .وفى النداء خطاب ومناجاة ، وتقريب للصورة ، حتى لو تفصلنا عنها آلاف السنين ، أو ان تكون معبرة عن شئ معنوى ، كالوطن والمجد ، والمثل فى قصيدة (وطنى مصر) (١) التى يتضح فيها النداء عنصرا أساسيافى بناء القصيدة ، ويكرر النداء مخاطبا وطنه مصر فيقول :

يـا أجـمل أيامـى يـا أروع أحلامـى

يـا مهد حـضارات خـلدت كالأهـرام

فالنداء يحمل فى طياته الفخر بالقيمة والمعنى والرمز ، ويحمل الاعتزاز بالوطن ، ومجد الوطن ، بما يمثله من حضارة باقية خالدة ، وعمر عاشه الشاعر فى حماه .

وفى قصيدة (أنا مصرى) (٢) يتكرر أسلوب النداء (يا وطنى) عشر مرات . كما ينادى الحبيب الغائب ، بعد أن عصف الظلام بأحلامه (٣):

يا أيها البدر الذى وشى الدجى بالسحر ، بالأنـداء ، بالأضواء

والأمثلة كثيرة فى دواوين الشاعر ، تعكس غرامه بأسلوب الخطاب يتوجه بها للأعزاء ، والى رموز دينية وقومية ، ويجد فى هذا التوجه تقنية فنية تدنيه من عالمه الأثير ، وتكسر حواجز العزلة بينه وبين الناس والمرئيات. فالشاعر ، فى توجهه العام ، لا يميل الى التعبير عن ذاته المنعزلة عمن حوله وما حوله ، لذا قل شعره الوجدانى ، رغم أهميته وتفرده ، وكثر شعره الدينى والوطنى .

---

(١) د / خفاجى : أنشودة الى الغد ـ ص ٥ ـ ٦ .

(٢) المصدر السابق ـص ١١ / ١٤ .

(٣) د/ خفاجى : أحلام الأمس (الزورق الحائر) ـ رابطة الأدب ١٨٨٩ ـ ص ٦ .

سادسا : تعدد الوصف :

وما دام ديدن الشاعر التكرار ، فمن الطبيعى أن تتعدد الأوصاف للاسم الواحد الموصوف . نجد التعدد فى كثير مما قال . وعلى سبيل المثال ، ما جاء فى قصيدته (وطنى مصر) (١) : وطنى الروض الزاهى الأنضر » . وما جاء فى (ملحمة السيرة النبوية الخالدة) من أوصاف للنبى، ﷺ ، بما تحدثنا عنه فى دراسة مستقلة عن الملحمة .

كما يتجلى هذا البناء الفنى فى قصيدة (موكب فى السماء) (٢) ، التى نقتطف منها هذه الأبيات ، عن الاسراء والمعراج :

ومن المسجد الحرام سرى للـ مسجد الأقصى النور طه النبى

ولصوب السماء طار وجبريـل على ركبه (الأمين القوى)

وينادى النبى الكويم قائلا :

يا نبى الحياة شرعـك بالحق وبالخـير والجـلال غـنى

أنت أنت الهوى وأنت الأمانى وأنا بالهـوى (السعيد الشقى)

وعن الأقصى يقول :

هو رمز الكفاح ، نبض فؤاد الـ شعب ، بل صوته (الجهير القوى)

سوف تبقى فوق النجوم فلسطين ويبقى الأقصى (التـليد الوفى)

أيها الـثائر (العـظيم) حرى بالمنى شعبك (العظـيم الأبى)

---

(١) خفاجى : أنشودة الى الغد ـ ص ٥

(٢) خفاجى : نشيد الذكرى ـ رابطة الأدب الحديث ـ ١٩٨٨ ـ ص ٥١ / ٥٣ .

لن يضيع الدم (البرئ الزكى)

وما بين الأقواس صفات نجد فيها تناغما ونسقا بديعا ، لدقة الوصف ودلالته فى سياق الأبيات .فاسراء الرسول الكريم ، من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى هو اسراء النور طه النبى ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام (الأمين القوى). .ويصف الشاعر نفسه ازاء هذا الموكب الجليل،بأنه (السعيدالشقى) ، وتتابع الأوصاف : فيذكر المسجد الثائر للحق ، ويصفه بالمسجد (الحر) ، ويضع الحرية فى مكان على ، ويصف صوت الشعب المكافح بأنه (جهير قوى). .ويبشر ببقاء فلسطين والأقصى (التليد الوفى). . وينادى الثائر (العظيم) ويبشر شعبه (العظيم الأبى) . . وفى ختام القصيدة يصف دم الشهداء بالدم (البرئ الزكى) . .فيستشعر قارئ القصيدة حلاوة الوصف فى سياق الأبيات ،بما يعجز الشرح عن بيانه. ففى القصيدة ـ كما قلت ـ تناعم ونسق بديع،يجعل الوصف مجسدا للمعنى،وركنا من أركان البناء الفنى للقصيدة .

شدتنى قصيدة (يا عيد) (١) ببنائها الفنى المحكم ، ورأيت فيها نموذجا للقصيدة الخفاجية . ذلك أنها قيلت فى مناسبة دينية . وشعر الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى معظمه اسلامى . والمناسبة هنا هى عيد المسلمين المتجدد كل عام مرتين ، عيد الفطر وعيد الأضحى ، ويتجدد فى مناسبات أخرى عديدة ، كالاسراء والمعراج ، ورأس الهجرة ، وغزوة بدر، وغيرها من المناسبات العطرة . وفى القصيدة المنتقاة لم يذكر أى عيد ذلك الذى يتحدث عنه . عيد لم يسمه ، لتبقى القصيدة غنية بمعانيها ، تتردد فى كل عيد ، وفى كل مناسبة دينية . صاغها فى سبعين بيتا . والعيد هنا مناسبة عزيزة على كل مسلم ، يذكر فيها دينه الذى انتشر فى ربوع الدنيا ، هاديا للحق والسلام ، معليا قيمة الانسان ، محطما أصنام الشرك والوثنية . وفى عنوان القصيدة (يا عيد) نداء حلو ، مفعم بالتفاؤل والبهجة ، واستدعاء لكل الأمجاد والانتصارات التى حققها الرسول الكريم ، ومن جاء بعده من المجاهدين الأوفياء . يستهل القصيدة بوصف بهجة العيد ، الذى تتحقق فيه أجمل الأمنيات ، ويعم الكون جمال وسحر ، يستهل القصيدة مخاطبا العيد:

أنت يا عيد بالمنى جذلان　　　وأنا فيــك ضاحك نشوان

فى الشطر الأول ، يخاطب العيد الذى حمل بمجيئه الأمنيات فى فرحة غامرة . وفى الشطر الثانى يتحدث عن سعادته ، ويسترسل فى صياغة أبيات تتفاءل بالحياة :

---

(١) خفاجى : نغم من الخلد ـ رابطة الأدب الحديث ـ ١٩٧٣ ـ ص ١٢ / ١٥ .

والربيع الجميل منك شذاه　　　منك يا عيد الروح والريحان
أين آذار منك يا عيد حاكت　　　يده وشى الزهر أو نيسان
واذا ما أشرقت يبتسم الكو　　　ن ، ويرنو لك العلا والزمان
أنت بالمجد والجلال غني　　　أنت بالدين والهدى ملآن

الأبيات ناطقة بذاتها ، معبرة ، دالة ، وليست فى حاجة الى شروح، وقد كرر الخطاب الى العيد، قاصدا تكثيف الصورة الفنية ، فى اطار قدوم العيد بالبهجة والتفاؤل ، والأمنيات الحلوة ، والنفخات الايمانية ، والذكرى العطرة . ثم يتحدث عن أمجاد الاسلام وانتصاراته على الشرك ورموزه ، فدالت امبراطوريات الفرس والهنود والروم واليونان . وانهزم قيصر ، وأنو شروان ، وبادت الطواغيت ، بعد أن زلزلت عروشهم وقصورهم . ثم تحدث عن معجزة الله فى الصحراء ، ويصور الصحراء فى عهدها الجديد.

ومشى الرمل ضاحكا يتغنى　　　بعلاها ، والبيد ، والكثبان

هنا تشخيص حى لأثر الدين الجديد . ليس أثره على الانسان فحسب، وانما يمتد هذا الاثر الى الصحراء كلها ، الرمل والبيد والكثبان . فقد وضح أثر الاسلام على الانسان وعلى كل الموجودات ، حتى الصحراء تحولت فى عهدها الشرق الجديد الى بركان بعث ،وتدب الحياة فى أوصال الجفاف ،فتلين القناة ويتراحم الناس ، ويتعاطفون . وهى بكل المقاييس ، معجزة الله فى خلقه . ثم يتجه الشاعر الى مكة المكرمة ، حيث البيت الرفيع الذى تهفو اليه نفوس المسلمين،من مشارق الأرض الى مغاربها. ويصف مولد المصطفى،وفرحة أمه آمنة،وهى ترنو الى طفلها الذى « يسبح فى نهر من النور » . ومشى الجد بالمهد العظيم الى الكعبة المشرفة ،

فأحاطته بالنور . ثم ينتقل بنا الشاعر الى نزول الوحى ، وتكليف محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالرسالة ، ليدعو الناس الى عبادة اله واحد، وتحطيم الأصنام والأوثان . ويختتم القصيدة ببهجة الأيام ،وحديث عن القدس .

والملاحظ أن القصيدة لم تخضع للترتيب الزمنى للأحداث ، وانما انساق الشاعر إلى تسلسل الأحاسيس فى داخله . . فعبر عن بهجة العيد أولا ، ثم تذكر أمجاد الاسلام ، ومعجزات الله الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ الذى جعل الصحراء تزهو بالدين الجديد ، واتجه إلى الكعبة ، وولادة الرسول الكريم ، ثم تطرق إلى الوحى الذى نزل عليه بالرسالة ، وجهاد النبى فى أداء الدعوة ، ثم أنهى القصيدة ، كما بدأها ، ببهجة أيام العيد . وحقق بذلك التدوير دون اعتبار لترتيب أحداث تاريخية طبقا لزمن وقوعها ، ذلك أنه ليس مؤرخا ، وانما حقق التدوير بفكرة رصينة ، بدأت وانتهت بفرحة غامرة بقدوم العيد ، وكان لابد أن تتواصل الأحاسيس بانتصارات الاسلام ، والرسول ، حياته وجهاده ، وهذا التدوير العفوى من جماليات القصيدة .

ويتمثل الشاعر هجرة الرسول ـ علية الصلاة والسلام ـ بأنها (موكب علوى) (١) فى قصيدة أخرى ، تعنون بهذا الوصف ،فى ثلاثة عشر بيتا. وفيها ذكر الأسماء التى سمى بها الرسول الكريم ،والصفات التى تحلى بها، وجاء هذا التنويع مقصودا لذاته للأحاطة ، واكساب القصيدة بعدا جماليا ، فنقرأ أسماء وصفات الرسول فى تضاعيف الأبيات : النبى ـ الأمين ـ المهدى ـ الرسول ـ اليعربى ـ أحمد ـ طه ـ العربى ـ الهاشمى ـ المرسل ـ الوفى ـ المصطفى ـ البشير ـ النذير . . ورغم تعدد هذه الأسماء والصفات ،

(١) خفاجى : نغم من الخلد – ص ١٦ / ١٨ .

الا أنه لم يذكر اسم (محمد) ، ربما لشيوعه ، وايثار الشاعر ذكر باقى الأسماء والصفات ، واحتفائه بها فى هذا الموكب العلوى - كما يصفه - المهاجر من مكة إلى المدينة ، فى رحلة مجاهدة للنفس ، والصبر على عنت القوم وضلالهم . وفى أحد الأبيات يقول :

موكب سار ، سار فيه نبى مرسل ، أكرم بالرسول النبى

ولاحظ توكيد الصفة ، حين قال « نبى مرسل » و « الرسول النبى » والتعظيم لصاحب الدعوة .

وفى البيت التالى له يقول :

بالبشير النذير طه ، وأعظم بخطى ذياك الأمين الوفى

فيذكر خمس كلمات تصف وتنوه بهذا المبعوث للناس كافة . وهو لا يكتفى بتعدد صفات النبى وأسمائه ، وانما يستعمل أيضا صيغتى التعجب «أكرم بـ . . » ، و « أعظم بـ . . » . . وهى من الأدوات الفنية التى لجأ اليها الشاعر ، فأعطت إلى جانب موسيقى الشعر ، صورة أخرى جديرة بالمقام السنى ، وبالموكب العظيم الذى جمع الرسول والصديق معا فى أعظم رحلة عرفها تاريخ الانسانية . يصفها الشاعر فى هذين البيتين :

أحمد والصديق وحدهما فى موكب فذ خالد علوى

وقريش من خلفهم ، أمة تتبع آثار موكب عبقرى

استدعاء الصورة

فى شعر الخفاجى سمة بارزة ، هى استدعاء الشخصية أو الصورة .. يستدعيها بطرق شتى ، منها الخطاب المباشر والنداء ،والتكرار للأسم أو المعنى المراد . ولهذا الاستدعاء حضور ماثل فى خاطر الشاعر ، فينتقل هذا الحضور بصورة تلقائية إلى المتلقى / القارىء . وفى الاستدعاء حميمية ومصادقة ومصاحبة . وفيه اشباع للخاطر بالصورة / الرمز ، أو بالانسان / المثال ، وهى بلاغة فنية مقصودة لذاتها ، واذا أضفنا إليها سهولة اللفظ ، وعدم اللجوء إلى غريب الكلمات ، والبعد عن الغموض ، نجد شعر الخفاجي أقرب إلى النفس ، يرسم بالتلقائية والعفوية صورا فنية صاغها لتعيش فى قلوب الناس ، أكثر ما يُعنى بها محترفو التنظير النقدى وتقنين الأدب ، بجفاف الحس ونضوب المعين ! .. ونضرب مثلا بقصيدة (سلام عليك) (١) . موجها خطابه وسلامه إلى الخليفة الرابع الامام على بن أبى طالب ـ كرم الله مجهه ـ فتفيض مشاعره جياشة ، ويسلس التعبير ، فتتوالد المعانى حية نابضة بالصدق ، وتأتى الكلمات جزلة متناسقة . يكرر سلامه فى الأبيات الأربعة الأولى :

سـلام عليك ، سلام عليـك ولائى وحبى المكين اليـك

ويـوم ولـدت ويـوم تمـوت ويوم تشفع فـى الملـكوت

ويستدنى صورة الحبيب بالنداء « أيا صهر خير رسول نبى » و « امام الأئمة » ، والاستفهام « فى من مثل مثل (على) ؟ » والاستفهام هنا يفيد انكار النظير والمثيل . وتكرار (مثل) توكيد للاستفهام ، الذى ينفى نفيا

(١) خفاجى : احلام الذكرى ـ ص ٦٣ / ٦٧ .

قاطعا وجود شخص نظير له أو شبيه . وقد حافظ الشاعر على أسلوب الخطاب المباشر من أول القصيدة الى آخرها. ولم يلجأ الى توجه آخر ، كأن يجنح الى سرد تاريخى، أو يبعد عن الخطاب المباشر الى خاطرة جالت فى نفسه، أو ما شابه ذلك، الا فى الأبيات الثلاثة الأخيرة . كما عدد صفات (على) وجهاده، وأشار الى منزلته العالية عند الرسول الكريم.

وفى قصيدة أخرى ، يستدنى صورة الغائب ، والغائب هنا زوجته الراحلة ، التى يشبهها بايزيس ، على نحو ما تحكى الأسطورة الفرعونية القديمة . يستدنى الصورة بل يستدعيها ، على نحو اجتزار الذكرى . فيذكر الأيام الخوالى ، وكانت رفيقة كفاحه فى رحلة الحياة ، وخير معين له فى عثرات الأيام . وحين يستدنى صورتها ، فى قصيدة (لحن وداع) (١) ، يبدأ كعادته بحرف النداء الأثير لديه :

يا كم سهرنا الليل نقترش المنى ... وعلى السراب خطاى لم أنم

وتعيد بسمته لى الأمل المحال ... وينتهى بحنانه ألمى

باك أسيف ان بكيت ، وضاحك ... ان جئته فى زهو مبتسم

وحديث أحزانى وأفراحى الغناء ... له ، أغنيها شجى بفمى

وصرير أقلامى وأوراقى أنيس ... منامه ، تعسا له قلمى

صورة بليغة خطها يراع شاعر محروم ، يشده الحنين . فيهز وجدان المتلقى ويخلب لبه بصورة الضاحك الباكى . يضحك وقت الفرج ، ويبكى وقت الشدة ، وتتشكل الصورة البلاغية فى أبهى صورة فى البيت الثالث .

---

(١) خفاجى : أحلام المساء ـ رابطة الأدب الحديث ـ ١٩٨٨ ـ ص ١٩٥ / ١٩٦ .

وهى صورة حركية ، فيها من البكاء قدر من الضحك . وينهى هذه الأبيات المعبرة ، وان كنتُ لا أميل إلى شرح واسهاب ، على طريقة دارسى الأدب والنقد ، حتى لا أفسد على المتلقى استمتاعه ، وأقحم نفسى فى صورة بيانية ، يُعجب بها المتلقى ويزهو ، فالايجاز هنا أبلغ من الافاضة ، والدلالة أفصح من الابانة .. وحسبى أن أقف عند البيت الأخير « وصرير أقلامى .. » .

فالكاتب الكبير يعيش حياته مع القلم والأوراق ، فاذا شريكة حياته تؤنسها هذه الأدوات ، ويهنأ لها النوم مستأنسة بها . صورة بليغة . لكن الفقد يهز كيان الشاعر ، فيحتج بنفس ممرورة : « تعسا له قلمى » . وهنا استعار (القلم) بدل (الذات) ، وصدمنا بالاحتجاج ، فأثر فى وجداننا ، بمرارة الفقد التى يحسها ومعاناته .. والفاصلة تحدد الفاصل المعنوى بين صورة انسانية ، وبين حال الفقد (الآنية) التى يعيشها، فاستدعاء الصورة ، كان استدعاء فى دائرة الخيال ، خيال شاعر ، لكنه سرعان ما يفيق لواقعه ، فيجد الصورة غائبة ، ومحال ما يراه فى خيال الحلم ، أملا يرتجيه فى دنيا الواقع ، فجاءت صرخة الاحتجاج موجعة تبين عمق الأحزان .

وفى قصيدة (أحلام الذكريات) (١)، يستدعى ذكريات الماضى فتتبدى صورة الحبيب قبالته طيفا حالما ، يُدنيه من سن الشباب والمرح ، وكانت الحبيبة هى الحلم الجميل، هى النجمة المضيئة فى أفقه المنشود ، هى الظل الظليل، وكان يرسم معها أجمل المنى. انه استدعاء ذو مسحة رومانسية، لعهد الشباب حيث تخايله صورة الحبيبة، ويزهى بطيفها المتراقص بعرائس المنى. وهذا الابتداع الخيالى ،كان اتجاها أبولليا، نجده

(١) خفاجى : من صحائف الذكرى - ص ٢٦٥ / ٢٦٦ .

في شعر أبي القاسم الشابي وابراهيم ناجي وأضرابهما .. وهو تصوير لحال الشاعر والمرتحل في رحلة إلى الماضي ، ولعله هروب من وطأة معاناة، أو ضغط واقع قاس ، فيستدني الصورة الأحلى ، والزمن الأجمل، والحبيب الأوفى . وحيث تتشكل الصورة الفنية بجمالياتها عند الشعراء الحالمين ،فرارا من الواقع (الآني) بآلامه ، إلى الماضي الجميل ، أو إلى أحلام وردية لمستقبل أزهى . وفي (أحلام الذكريات) يكثر أسلوب الخطاب إلى الحبيبة، والتعجب لما آل اليه الحال بعد الفراق . فالشباب اذا ولى عهده ، لا يبقى الا اجترار الذكريات واستدعاء الصور الغائبة . واذا صُدم الشاعر بالواقع ، تكون الحسرة على العمر الذي ولى . وهذا شاعر من الشرقية ، عبد العزيز السعدني ، يكاتب الخفاجي ، مرسلا له قصيدة تحية ، يشكره فيها على اهدائه أحد دواوينه ، يقول فيها (١) :

منذ غاب الشباب عنك ، وعني شاه وجه الزمان والأمس غابا

وجمال الوجود لاح دميما فكأن الوجود ، لا نحن ، شابا

(١) خفاجي : أمن صحائف الذكرى - ص ٢٨٧ . .

الزورق الحائر

ينضم الشاعر الدكتور خفاجي إلى ركب الشعراء الذين رثوا زوجاتهم بقصائد تنم عن احساس مرهف ، ولفحة حزن ألمت به بعد فقد شريكة العمر . ماتت زوجته فى الثالث من أغسطس عام ١٩٨٧ ، فرثاها بقصيدة فريدة عبرت عن الوفاء والترابط والتآلف . وترده النزعة الايمانية إلى مشيئة الله التى تعلو فوق كل مشيئة . وفى قصيدة (الزورق الحائر) (١) . ، نقف معه عند تساؤلات عديدة ، تعكس محنة الفقد ، والأزمة التى يمر بها . يستهل القصيدة بالبيتين :

غاب عنى وجه المشرق غابا   أصبحت من بعده الدنيا سرابا

يعبر الفعل (غاب) عن الاحساس الفطرى لانسان فقد عزيزا ، وتكرار الفعل ينّم عن اللوعة والألم .

يتحدث فى البيت الأول عن الوجه المشرق الغائب ! .. وجه كان يصطفيه ويقاسمه الحياة أربعين عاما . لكن يتبدل احساسه فى البيت الثانى، فيرى أنها عالمه كله ، وليست فردا واحدا ، هى كل الناس ، فعبر عنها بصيغة الجمع « ذهبوا ليتهمو ما ذهبوا » . وسرعان ما يفيق إلى أن الموت حق ، وأنها مشيئة الله :

كان ما كان ، وشاء الله أن   يطوى البين المرير الأصبابا

ويطرح تساؤله : لِمَ ولى ؟ ولِمَ غاب ؟ ثم ترده النزعة الايمانية ليجد الاجابة حاضرة ، فيردد وقد عاوده هدوء نفسى :

---

(١) خفاجى : احلام الأمس (الزورق الحائر) - ص ١١ / ١٤ .

حكمة اللــه ، تعالى اللــه ، ومـا شـاءه كـان ، ويحيى الأصلابـا
هــو أدرى أنــنا نجـهل حكــ ـــمته العليا ، ولا ندرى الصوابـا

ويناجى الفقيدة بنداءات مختلفة : يا زمانى ـ يا حياتى ـ يا ملاكى . كما أنه مغرم بالتكرار حين يعدد مناقب ومآثر الراحلة . يبدأ أبياته بفعل الكينونة فى صيغة الماضى « كنتِ . . » فى ستة أبيات متتالية . والتكرار هنا ، يعمل على تكثيف الصورة الفنية ، ويبين وقع المصاب لدى الشاعر المصدوم .

ويذكرها فى (ليلة العيد) (١) ، فيتأسى لفراقها منذ عام :

ليلـة العــيد مـا تـزال بـذكـرا هـا لـظى فى فؤادى الستـهـام
فى دجاها ودعتُ أغلى كنـوزى وسـدت كـفى ظلـه فى الرغـام

وهذا أبو الطيب المتنبى يخرج من مصر حزينا ، والدنيا من حوله تحتفل بقدوم العيد ، فطفق يردد أبياته المشهورة (٢) .

عيد بأية حال عدت يا عيـد بما مضى أم لأمر فيك تجديـدُ
أما الأحبة فالبيداء دونهـم فليت دونك بـيدا دونها بيــدُ

الاحساس بالفقد قاسم مشترك بين الشاعرين اللذين يتأسيان من قدوم عيد دون لقاء الأحباب . الخفاجى فقد الزوجة ، والمتنبى فقد الأحبة ، الفقد للأول سببه الموت ، والفقد للثانى سببه الارتحال عن مصر . الاثنان يعبران عن اللوعة والأسى فى مناسبة واحدة .

---

(١) خفاجى : أحلام المساء - ص ١٨٣ .

(٢) ديوان المتنبى - تحقيق : خفاجى وسعيد جودة السحار ود. شرف - مكتبة مصر ١٩٩٤ قصيدة (عيد) - ص ١٣٥ .

يأسى الخفاجى لحاله حين قدم العيد فيذكر زوجته التى فقدها ليلة العيد. والمتنبى ارتحل عن مصر والدنيا عيد، فأحزنه فراق الأحبة. الاحساس بالفقد أفقد الشاعرين البهجة بالعيد. ويستهل خفاجى قصيدته بنبرة حزن طاغية :

أنــا مــالــى أنــا وللأيــام　　منحتنى العبوس بعد ابتسام

ويقول :

وخصــام بيــن الـزمـان وبينى　　كيف يا قلب أصطلى بالخصام ؟

بسبب الفقد عقد الشاعر نوعا من الخصومة مع (الأيام) ، أو قل مع (الحياة) التى يعيشها . وهنا نجد تساؤله مبررا : « كيف يا قلب أصطلى بالخصام ؟ » . فمخاصمة الزمان لا تحقق الوئام فتنشأ القطيعة ، أو كما نقول فى مثل هذه الأحوال : تسودّ المرئيات فى عين الرائى ، ولا يعرف للأيام طعما ، وما إلى ذلك من أحاسيس ومشاعر تعبر فى مجملها عن حالة الفقد ، بما قد يستتبعها من نفور من الحياة ، أو الزهد فيها .

ويصور كيف اختطف المنون زوجته ، فيقول :

ومـــشى زورقى وحـيدا غريبا　　بين موج وعاصف فى الـظلام

والـشراع القديـم قـد مزقـته　　فى الأعاصير الهوج كف الرامى

مرحا عاش ثم خـــر صريــعا　　أسلم الروح فى الصراع الدامى

صورة فنية رسمها قلب معنى ، أحس بغربته بعد فقد الحبيب ، الذى تركه يصارع أمواج الحياة وحده ، ثم يصف كيف خر صريعا وأسلم الروح، وفى البيت الرابع ،مقابلة موجعة، بين إحساس الشاعر بالأمن مع الحبيب ،

وجنيه الأمال معه ، واذا « بأيدى الحمام » تصطفيه ، والصورة المرسومة توحى لقارئها كأن الموت ملاك طائر يصطفى أحباءه فيختطفهم خطفا ! الصورة الفنية تشي بهذا . . كان لي الأمن والمني فاصطفته « . . ففى هذا الشطر تعاقب حدثى سريع (كان / فاصطفته) . . فالمنية عاجلته كالصدمة المباغتة فضاعفت الاحساس بالفقد . وهكذا الموت دائما ، يأتى على غير موعد ، لحكمة يعلمها الله سبحانه وتعالى ، ولا نملك الا التسليم والقبول بالقضاء . ويرتد الانسان غريبا فى دنياه ، يتأسى للفقد ، وتتأكد عبثية الحياة بمادياتها ومشقاتها ، ويبقى صوت الشاعر يتغنى بآلام الحزن ومواجعه. «ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام » (١) صدق الله العظيم .

ويتكرر صوت الآه الموجعة فى قصائد عديدة ، منها (كان حلما)(٢) التى كتبها فى ذكرى مرور نصف العام على الفراق .. ويترجم هنا الاحساس بالفقد بأن دنياه صارت كئيبة ، ولا يهنأ له العيش الا فى خيالات الحلم . ولا يزال يذكر يوم الفراق . . يقول فى أسى :

غابت الحلوة الرقيقة غابت ونهايات شمسنا للمغيب
والهزار الوديع وهو يغـنى لحنه صار مشبها للنعيب

(١) سورة الرحمن ـ آية ٢٧ .
(٢) خفاجى : أحلام المساء ـ ص ١٩٠ / ١٩٣ .

وفي شعر الخفاجي تجارب حياتية ، تتعلق بالذات المغتربة في خضم الحياة ، المتلاطمة أمواجه . فبالاضافة الى انشغاله بالقضايا العامة ، بوطنه وأمجاده ، وبما يمثله الوطن من حضارة عريقة ، ودين قويم ، بسمو تعاليمه وسماحة دعوته ، وتاريخ الاسلام المجيد . الى جانب هذه القضايا التي تعكس توجهه القومي والاسلامي ، فانه كثيرا ما يختلي بنفسه ، يراجعها ، ويعبر عن غربتها في عالم موار . وقصيدة (النغم الحزين) (١) مثل ظاهر للذات المغتربة ، يصلنا أنين الشاعر وهو يغالب الصعاب ، واكتشافه بأن أحزانه وشجونه ليس لها أول ولا آخر ، فيعبر يراعه عما يضني الذات التي فطمت حسها على الايثار وحب النفع العام . ولا يملك الا أن يبث شكواه وأنينه .

لكن القلب المرهف سرعان ما يغمره نور اليقين ، وتكون النزعة الايمانية الحصن الحصين والموئل المكين ، فتأمن النفس من زوابع القلق ، وتعتصم من الزلات والسقطات ، وتتدفق أحاسيسه ، وان كان لا يني في طرح تساؤلاته المعبرة عن حيرته :

أكل طلابك يا ابن الخيال   قصيد بلحن المنى زاخر

يبتني الشاعر قصوره في الخيال ، كحال قيس ، مجنون ليلى ، الذي ابتنى قصور حبه في الرمال . كلاهما اتخذ الخيال وسيلته ، وهذه حال الشعراء والفنانين الحالمين تسمو روحهم بالواقع وترتقي به . نحن اذن أمام شاعر يلون أزاهير قصائده بأمنيات حلوة تزهو في داخله ، ويجيش بها

---

(١) خفاجي : أنشودة الى الغد ـ ص ٨ .

صدره . لكن الشاعر قد يصطدم بالآمال الكاذبات .

ولا يتبقى للشاعر الا الحسرة وقد استشعر الغربة فى عالم قد لا يعرف بنيه . وتنشأ خصومة بين التيار المادى الجارف ، وقيم جمالية انسانية ، ويبدو أمام الشاعر بعد المسافة بينه وعالمه الذى يعيش فيه، أو هى غربة الشاعر ، وحسرته على انقضاء الزمان ، ولما يزل فى مكانه يأمل فى انبلاج صبح يوم جديد ، فيختتم قصيدته باللوعة والحسرة .

وتتميز هذه القصيدة بعمق التجربة الحياتية ، وصدق الشاعر ، لذا نجد الأبيات سلسلة المعانى ، قوية الايحاء . ومن جماليات (النغم الحزين)، صيغة الخطاب للنفس . . يحاورها ، ويكاشفها بحجم المعاناة التى يتكبدها فى رحلة الحياة . فما زال صوت الشاعر ، يترنم بأحاسيسه ، معبرا عن جوهر الانسان ومعدنه الأصيل ،الذى تتجمل به حياتنا ، وينقضى العمر بالشاعر، فلا يتحقق له حلم ، أو ينبلج له الفجر المنشود .وصيغة الخطاب أدت دورها، وأفسحت للشاعر ساحة كافية ، لمكاشفة النفس بواقع الحال ، والتعبير عن شجونها ، فالشاعر يحاور نفسه ، كأنها ذات أخرى منفصله عنه يحاورها من زاوية الرجل الخبير بواقع الحياة ،وصاحب تجربة. انه بهذا الحوار بينه وبين نفسه حقق المزاوجة المطلوبة ليبين عن أحاسيسه ، فتحولت القصيدة الى لوحة جمالية تأسر النفس وتحيى الفؤاد .

وفى قصيدة (يا نجمتى) (١) ، يخاطب نجمته التى تتألق وسط النجمات المرصعة بها صفحة السماء . . والنجمة هنا ، ترمز للأمل الذى يداعب أحلام الشاعر ، والأمل الحانى الذى يخفف عنه آلام الطريق .

واذا شردت النجمات عنه ، فان نجمته تتألق وهى ترنو اليه فى حنان آسر ، وهو ـ من جانبه ـ يراها نجمة ضاحكة ، فيضحك الأفق كله

(١) خفاجى : أنشودة الى الغد ـ ص ٢٦ /٢٨ .

لضحكتها. والنجمة كما قلنا هي الأمل يحيا أبدا في قلب الشاعر ، وقد تكون هي الحبيبة التي تضحك ، فيضحك الأفق لضكتها . فالنجمة كما قلنا هي الأمل تتجسد كائنا بشريا ، والنجمة / الأمل ذاته المغترية بالاشارة الى حاله ، فيقول عن نفسه : هذا الشقي ، هذا الحزين ، هذا الغريب . فالشقاء والحزن والغربة ، صور متباينة لمعاناة الشاعر في رحلة الحياة ، متغنيا بأحاسيس الفؤاد ، راسمابأغنياته أحلاما زاهية مشرقة..

غنيت أروع ما يجـيش به   قلب من الأحلام والصور

ونسجت للأيـام أرديــة   زينتــها بروائـع الــدرر

انه يجمل الحياة بأجل ما يزخر به قلب شاعر من أحلام وردية ، فيرسم للأيام ، أو للواقع ، أجمل الصور . ان ما يعتلج به قلبه من رؤى وأحلام ، يتمناها واقعا معايشا ، رغم احساسه بالغربة ، ويعود الى نجمته وقد تبدلت من الحنان الى السخرية ، وفي خريف العمر (.. وتتكاثف سحب الحزن في نفسه ، حتى أنه يناجي نجمته قائلا :

يا نجمتي لأراكِ ساخـرة   في مأتمي وغروب أيامي

ولأنتِ لي ، للروح ، أغنيـة   أحيا لها عمري والهامــي

هنا صورتان متقابلتان ، في البيت الأول ، تسخر النجة في خريف العمر . وفي الثاني ، يأمل الشاعر في نجمته ، فهي الأمل للروح ، ويتمثلها أغنية يحيا لها . لذا ، فالنجمة / الأمل قد تكون معادلا موضوعياً لانسان عزيز قريب من نفسه . وقد يقصد هذا التضاد ، لذاته ، اذ تتنازعه صورتان، صورة النجمة الساحرة ، أو حظه المعاند ، أو الأمل اللاهث خلفه،وهي صورة معنوية رسمها في البيت الأول،وصورة ثانية لانسان

حبيب، يتمثل فيه الأمل المرتجى، أو أن الحياة ترخص من أجله، فيقف حياته كلها له. وهذا ما صوره البيت الثانى. وقد لا يكون التضاد مقصودا، وانما بقصد الشاعر المزاوجة بين حال نجمته الساحرة، وما يتمثله فيها من أمل ورجاء، بصرف النظر عما هو مقصود بالنجمة، أملا كانت، أو حبيبة يهواها الفؤاد. والتباعد الذى رسمه بين النجمة وذاته. تأمل معى كم تبعد النجوم فى السماء عن الانسان، وما تشى به من طول رحلة الانسان، جريا وعناء وراء الآمال، وقد يكون فى سعيه الحثيث يلهث وراء سراب تزينه له كاذبات الأماني. وما نملك من أقدارنا الا أن نعيش الحياة، بما فيها من معاناة وشقاء. وفى البيتين السابقين، نستشف غربة الروح، عبر عنها أجمل تعبير، بتباعد المسافة بين ما تهوى النفس، وما يتحقق.

أصل الشقاء. الغربة التى يحسها الانسان بين ما يجيش به فؤاده واصطدامه بالواقع، بين الروح المحلقة الهائمة والجسد بمتطلباته المادية، بين الخيال الحالم وما يرسمه من صور ملونة زاهية، وبين الواقع الأليم المادى الذى يتسابق ويتصارع البشر فى حلبته. فالغربة تنشأ من التضاد بين الروح والمادة، وبين الحلم والواقع، لذا لجأ توفيق الحكيم الى عقد مصالحة وتوفيق بين الضدين، فيما سماه بالتعادلية.. فالغربة اذن منشؤها عدم التوفيق بين هذين الضدين، فيعيش الانسان غريباً.. والشاعر فى غربته هذه يصف نفسه نسراً يطير فى الأعالى حتى يطاول السحب، ويواصل السير على درب الجراح والآمال رغم احتراقه بلهب الجراح. وليس أمام الانسان من سبيل الا المضى فى طريقه رغم ما فى رحلته من آلام وشجون. ويتمسك الشاعر بالارادة والتحدى، فيصر على مواصلة السير فى رحلة الحياة، بعزيمة فارس بطل، ليستأصل جذور الشر، ويتمثل نفسه.. " روحا من الايمان صابرة".

شاعر يعيش فى دائرة الحلم

الشاعر يحلم " نعم " ومن سواه جدير بأن يعيش الحلم ؟ وفى دائرة الحلم، شوق وأمل ، تتجدد به النفس ، وتكسر رتابة الحياة . من الطبيعى أن يحلم الشاعر ، أو يمزج الواقع بالحلم ، أو يعقد مقابلة بينهما . والشاعر محمد عبد المنعم خفاجى يحلم فى شعره . يصرح بأنه يعيش فى دائرة الحلم، وصولا الى اعادة ترتيب الواقع ، وصنع الحياة بصورة أكثر اشراقاً ، والحلم أمل الشاعر فى التخفف من وطأة المعاناة . أليس هو القائل فى قصيدة (أحلام . .) (١) :

أحلامنا الزاد الشهى ، وفى الهجير   هى الظلال من الشقاء المـــارد

ويقول فى مطلع قصيدة (كم كانت الأحلام) (٢) :

ياكم سهرنا الليل ننسجـه   حلما ، وحتى مطلع الفجر

كم كانت الأحلام تدفعنا   لنقود كل مواكـب النصـر

أحلامنا ان بددت وصلت   بسداد رأى فى الدجـى المر

واذا تتبعنا مفردات (الحلم) فى لغته الشعرية ، نجد (الحلم) مفردا طاغيا يؤثر على شعره . (فالحلم) واحة يستظل فيها من هجير الحياة . والأمثلة والشواهد ، مبثوثة فى قصائد كثيرة فى كل دواوينه ، ويحق أن نقف عندها ، لأنها ظاهرة تشيع فى شعره ، ولأن الشاعر يعيش بين الكتب. لذا ، فالحلم واحة ظليلة ، للغد الباسم والصباح الوليد ، والحلم

---

(١) خفاجى : أنشودة الى الغد ـ ص ٢٠ .

(٢) المصدر السابق ـ ص ٢٣ .

محطة للتمنى .وهو فى دائرة الحلم ، عازف عن أباطيل الحياة ، وتتحدد رسالة الشاعر فى دعوة الناس الى دائرة (الحلم) ،وصولا الى الايمان، والصفاء ،والقناعة . . وهو كما يصف نفسه" دامى الرؤى والحلم"(١). . فبالحلم الجميل تتجمل الحياة ويزهى الانسان، مستشعرا القيمة والمعنى . .

صورة لحلم الشاعر ، مشبعة بالأسى ، لكنه يرسم ويلون للأيام زينتها . والتساؤل البليغ " كم قد حلمت " . . يجلو صورة حالمة للشاعر الذى لا يرفض الواقع ، لما فيه من شجن وأسى ، لكنه يتعايش معه ، ويخلق نوعا من التصالح ، بأن يحلم بصور وردية ، ويجمل فى حلمه هذا الواقع . ورغم روح التفاؤل الشائعة فى أحلامه ، الا أن " ليل الشجو " أو اصطدامه بالواقع يغتال حلمه الزاهى . وهذه (تراجيديا) الانسان الحائر بين ضدين يتصارعان فى داخله . . واقع يصطدم به ، وحلم يتمناه . . مثل صراعه بين الخير والشر ، والحب والكراهية ، والحياة والموت ، والحلال والحرام ، وقس على ذلك الزخم الهائل من الأضداد فى حياتنا . ويكثف الشاعر فى جل قصائده هذين الضدين ، الحلم والواقع . فتولد المعاناة ، لكنها المعاناة التى تسمو بمشاعر الانسان وترق بها أحاسيسه .

ولو استعرضنا عناوين بعض دواوين الخفاجى ، وجدناه يؤثر (الأحلام) عنوانا لها ، دلالة على أهمية الحلم وولعه بالولوج فى دائرته . وان اختيار العنوان الدال لمجموعة شعرية أو قصصية أو لرواية أو مسرحية ، كبر المؤلف أو صغر ، يعكس بؤرة الاهتمام لدى المبدع ، واللاحظ أنه فى مختلف سنى العمر يؤثر (الأحلام) ، عنواناً لبعض دواوينه ، وان دل ذلك على شيء ، فانما يدل على أن ما انطبع فى الصغر ، يستأثر باهتمام الانسان

(١) المصدر السابق ـ ص ٢٣ . ـ

على امتداد عمره ، وتمثل أمامنا المقولة : " من شب على شيء شاب عليه" . . أما الاختلاف فمردود الى تجارب الحياة التى تصقل الشخصية وتنميها ، وتؤثر على الأنسان سلباأو إيجابا ، لكن ، يظل يشكل شخصية المرء فى أول الشاب ، هو الشيء الحاد المسبب للأرق والتوتر . . وقديما قيل: " العلم فى الصغر ، كالنقش على الحجر " . . و (الأحلام) كلمة ذات معان ودلالات فى نفس الشاعر ، وإذا كانت الأحلام هى المثال أو (اليوتوبيا utopia) التى يتمنى الانسان أن تؤسس عليها دنيانا ، أو (جهورية أفلاطون) ، فان الشاعر يظل يزاوج بين العالم المثالى الذى يراه فى دائرة الحلم ، والواقع الذى يعيش فيه ويصطدم بسلبياته .

اذن ، فلنتأمل عناوين دواوين الخفاجى ، بدءا بديوانه الصادر عام ١٩٤٩ (أحلام الشباب) ، وبعد عشرين عاما لم يصدر خلالها ديوانا واحدا ، أصدر عا ١٩٦٩ ديوانا بعنوان (أحلام السراب) وفى عام ١٩٨٨ أصدر (أحلام المساء) وفى عام ١٩٩٠ أصدر ديوانين : (أحلام الذكرى) و(أحلام الأمس) .

وهذه الدواوين أو المجموعات ليست كل اصداراته الشعرية بالطبع . لكن قصدنا بيان مدى اهتمام الشاعر بدائرة الحلم،فوضع عنوان (أحلام. . .) لخمسة دواوين شعرية ،بصيغة الجع، وبنفس التركيب / صيغة الاضافة : أحلام الشباب ، أحلام السراب ، أحلام المساء ،أما عناوين قصائده المرتبطة بدائرة الحلم ، فنذكر منها : الحلم الكبير - هى الأحلام - بقايا حلم - أيام وأحلام - ياكل أحلامى - أحلام دهرى - رؤى - كان حلما - حلم فى الضحى - أحلام الليالى - أحلام - كم كانت الأحلام .

ويقترب الشاعر أكثر من دائرة الحلم حين يفتقد شريكه عمره ،

فيستدنى صورتها ، ويصور واقعه بأنه (حلم خيال) ، يقول : " عدتُ أحيا الخيال فى الأحلام " (١) ، ويسأل فى أسى :

أيـن منـى ذاك الأنيـس ووجـــــه   كان حلمى فى ليل عيشى الجهام ؟

ويقول (٢) :

كنتِ كل الرؤى وحلم الليالـى   فى شبابى ، بجانبى ، والمشيب

ويقول :

يافؤادى الحلم الجميل انتهى والـ   أمل الدانـى صار غيـر قريـب

وكثيرة هى الشواهد التى تكشف غربة الشاعر بعد فقد زوجته ، ولا يهنأ له عيش الا بذكر أيامها الحلوة بجانبه ، تشاركه رحلة الحياة ، ويلذ له العيش فى دائرة الحلم ، يستدنى صورتها فيقول ، وما أكثر ما قال فى هذا المعنى (٣) :

أنا فرّت منى الـسعادة الا   حين ألقاك فى منامى الرحيب

وأنا جيك طيف حلم جميل   وخيالات فجر عصر عجيب

والشاعر كثير الاحتفاء بدائرة الحلم . ففى الحلم يكون الأمل والفرار من هموم الحياة ، وتكون فرصة مواتية للخيال كى يحلق فى الآفاق والأكوان. وفى الحلم ، تأمل واتساع فضاء ، وأن انكسر الفاصل الزمنى ، وألغى الزمن المتعارف عليه فى دنيا الواقع ، وانكسر الحاجز المكانى .

---

(١) خفاجى : أحلا المساء - قصيدة (ليلة العيد) - ص ١٨١ .
(٢) الصدر السابق - قصيدة (كان حلما) - ص ١٩١ .
(٣) المصدر السابق - ص ١٩٢ / ١٩٣ .

فالحلم لا يعترف بدائرة (الزمكان) ، ويبتنى له دنياعجيبة فى الخيال ، لا يعرف سرها الا الخالق البارئ سبحانه وتعالى . وفى قصيدة (لحن وداع) (١) يستهلها بتساؤل :

من أنت يا روحى ويا حلمى ؟

فى معرض حديثه عن شريكة حياته التى فارقته وتركته مستثار الوجد فى كل ذكرى تذكره بها . وفى تساؤله هذا ، يصفها، يصفها بأنها (روحه) و (حلمه) . . فالحلم من الأهمية بمكان ، فيضعه فى منزلة الروح ، أو قل حياة أخرى رحيبة لا تتقيد بالزمان أو المكان المتعارف عليهما . ويقول فى نفس القصيدة :

العمر رحلة سائح متصوف ويضيق لولا فسحة الحلم

هنا يختصر العمر اختصارا ، مجرد رحلة قصيرة لسائح ، لكن السائح، اذا كان متصوفا ، فانه يفلسف مفردات الكون ، ويتأمل فى ملكوت الله، سابحا فى أجواز القضاء بفكره الصوفى الذى يقترب به خطوات من الخالق سبحانه وتعالى . فاذا كان السائح متصوفا ، فانه يضيق بالعمر القصير، وان عاشه عشرات من السنين مما نعد ، فهو رحلة قصيرة جدا ، كلمح البصر فى عمر الزمان السرمدى ، وسرعان ما ينقضى العمر ، لولا سانحة الحلم ، أو دائرة الحلم ، التى يلجها العابد المتصوف . ولا يقتصر (الحلم) عند خفاجي على اقتباس بيت أو أكثر من قصائده ، لنستشهد به على ولوجه دائرة الحلم ،أو غرامه بها. . وانما نجده كثير الاحتفاء بالحلم، فرارا من ضغوط الحياة ، ربما ، أو متنفسا لآفاق أرحب ، ربما ، أو اعادة

---

(١) خفاجي : أحلام المساء ـ ص ١٩٤ .

صياغة للحياة بطريقة أفضل ، ربما ، أو وصولا للحظات تصوف تقرب المرء من خالقه ، ربما . . . فالحلم قد يكون أحد هذه العناصر ، أو مزجا لعنصرين منهما ، أو لكل العناصر معا ، فدائرة الحلم يلجها الشاعر وفى نفسه نزعة ايمانية ، وامتثال لحكمة الخالق . لذا نجد تلاحم دائرة الحلم مع دائرة الايمان . ومن منظور هندسى ، اذا قلنا أن عنصرى الحلم والايمان يفرضان على شاعرنا نفسه الشعرى ، واعتبرنا الدائرتين تتقاطعان ، نجد أن موقع خفاجى يكون فى منطقة التقاطع هذه .

انه لا يشط فى أحلامه، فدائرة الحلم وحدها، اذا غرق فيها انسان، ناله من الشطط ما ناله ولكن دائرة الايمان متقاطعة معها، لذا نقرأ البيت من جديد .

العمر رحلة سائح متصوف ويضيق لولا فسحة الحلم

أيضا ، يعيش الشاعر واقعه ، ولا نرى من الصواب اغفال دائرة الواقع . ولو استقرأنا شعر الدكتور خفاجى ، نجده قريبا من الواقع ، بل انه من أشد الشعراء المتفائلين بالحياة . لهذا لا بأس مثل بعض الشعراء ، على العمر الذى ولى وراح ، والمثل يحضرنا فى عمر الخيام ، الذى يقول فى رباعياته (١) :

عند صياح الديك ،

صاح الواقفون أمام الحانة ، افتح الباب

أنت تعلم أن مهلة الحياة المتاحة قصيرة قصيرة

---

(١) عمر الخيام : رباعيات الخيات ـ ترجمة بدر توفيق ـ القاهرة ١٩٨٩ ـ ص ٢٧ .

وأنها اذا مضت ، فلن تعود أبدا وتنفح دائرة الحلم جوانب نفسه بأريج الأمل وعطر التفاؤل . وفى ذكرى توفيق الحكيم ، يشيد بنثره الفنى الداعى الى حرية الانسان ، كما يراه الحلم والأمل الباسم (١) :

نثرك الباذخ البليغ هـو الحر ية الكبرى ، بل هـو الانسان
هو للشعب الحلم والأمل الباسم والنـور والمـنى والحـنان

فالحلم يزهى ويتزيى بزى الأمل . الحلم مرادف لبهجة الحياة ، الحلم بعيد تشكيل الحياة طبقا لما يطمح اليه الانسان ويريد .

---

(١) خفاجى : أحلام الساء ـ قصيدة (توفيق الحكيم فى ذاكره) ـ ص ١٠٤ .

شاعر الملحمة النبوية

يقول الدكتور / ثروت عكاشة فى تعريفه للملحمة : أنها « القصيدة القصصية المسهبة التى تتغنى بمآثر البطولة فى أجل أسلوب وأجزله . وتهدف الى تمجيد مثل جماعية عظيمة (دينية أو وطنية أو سياسية أو انسانية) بسرد مآثر بطل حقيقى أو أسطورى تتجسد فيه هذه المثل » . وفى ضوء هذا التعريف ، نقرأ (ملحمة السيرة)، كل قصيدة منها تستقل بذاتها، وتندرج تحت عنوان خاص بها .لكن كل قصيدة تؤدى - أيضا - دورها الفنى المرسوم فى سياق الملحمة ،والاطار العام لها هو الاشادة والتمجيد لرسول الانسانية محمد عليه الصلاة والسلام ،وذكر سيرته الحياتية من منظور الرسالة التى كلفه الله بها ،لدعوة كافة البشر الى الدين الحنيف.وقد حرص الشاعر على التأريخ لهذه السيرة العطرة من مولد المصطفى حتى وفاته ،فهو ملتزم بالترتيب التاريخى للأحداث ،وان لم يمنعه الترتيب من احاطه القارئ بالنظرة الكلية الشاملة.وفى معرض سرد مآثر الرسول الأعظم - البطل الحقيقى للملحمة ،استعرض مراحل عمره ، وصفاته ، وسلوكه القويم ، ونزول الوحى ، ومجاهدة الكفار ،والغزوات التى خاضها ،ثم دعوته الملوك للدخول فى الاسلام ، ثم وفاته. ونظرا للطابع الدينى للموضوع ، تخلو الملحمة النبوية من الأساطير والأعمال الخارقة التى ألفناها فى ملاحم العصور القديمة والوسطى كملاحم الرامايانا والمهابهاراتا ورولان وجلجاميش وانكيدوا . .وان تجنى الشاعر مؤلف ملحمة رولان على العقيدة الاسلامية. .وتتفوق (ملحمة السيرة النبوية الخالدة) على كل الملاحم التى تبرز البطولات الخارقة ،التى هى من نسج الخيال ،لأنها تعرض سيرة قائد الأمة الاسلامية فى مجاهدته الشرك بالموعظة والأسوة الحسنة ،فيما لا عهد

للملاحم به ، تلك الملاحم التى فتن مؤلفوها بالحروب وسفك الدماء ، بينما استمدت الملحمة الاسلامية قوتها من القرآن الكريم ، وعظمتها من عظمة الرسول الأمين . فهذه الملحمة ترتبط بالواقع ولا تشطح الى الخيال، وتخاطب الإنسان المتحرر من العبودية والوثنية ، تناصر السلوك الانسانى القويم ، بما يتمثل فيه من مثل وقيم . وكان المثل الظاهر فى شخص الرسول الكريم ، معلم الإنسانية .

وقد سبقت مدائح الخفاجى النبوية مدائح أخرى للبوصيرى فى بردته ومعارضة أحمد شوقى ، والياذة أحمد محرم الاسلامية المعروفة باسم (ديوان مجد الاسلام) ، مستعيرا الاسم من الياذة هوميروس التى صوّر فيها مغامرات أبطاله ومعاناتهم . . كما قام لسان الدين بن الخطيب بسرد السيرة المحمدية شعرا .

وحيث أن السيرة المحمدية تفوق كل الملاحم المؤلفة ، من حيث كونها تمجيدا لرسول العناية الالهية لكافة البشر ،بينما المتعارف عليه أن الملاحم المعارك والحروب والقوى الخارقة ،وتصفها وتصورها بدقة ومهارة فنية . فالملحمة الشعرية للسيرة المحمدية تشيد بالعقيدة الاسلامية ،وحامل لوائها .لذا فإن تسميتها بالملحمة انما هو اعلاء لهذا الفن،وليس اعلاء للسيرة المحمدية،كما حسب الشاعر الإسلامى أحمد محرم،أن تسمية ديوانه (مجد الاسلام) بالالياذة الاسلامية ،يرفع من قدر شعره . لكننى أحسب أن فن (المدائح المنبوية) قائم بذاته ،ولذاته ،تنزيها للرسالة الاسلامية عن اى خلق فنى يختص بأمور حياتية،وبعدا عن مقارنة السيرة العطرة بأبطال الملاحم كجلجاميش وانكيدو وغيرهما . .لأن بطولات هؤلاء،فيها من الخيال الكثير،بينما (السيرة المحمدية) فيها من الواقع الكثير ، وفيها قبس

من نور السماء الكثير ، وفيها إعجاز القرآن ببلاغة وبيانه ، ونزوله على محمد الأمى ، خير برهان على المعجزة الالهية . كما أن العرب لم يعرفوا الملاحم عبر تاريخهم الطويل ، رغم أن الشعر فنهم الأول وديوانهم الأرفع .. وفى ذلك يقرر الدكتور شوقى ضيف أن السبب فى عدم وجود ملاحم عربية شبيهة بالالياذة والأوديسا المنسوبتين لهوميروس لا يرجع الى أن العرب لم تكن لهم حروب كحرب طروادة ، فقد كانت لهم فى تاريخهم حروب هائلة مع الفرس كذى قار ، ومع أنفسهم كالبسوس ، فضلا عن حروبهم الاسلامية فى الشرق والغرب وكان لهم فيها أبطال لا يقلون شأوا عن أخيل وهلتور فتكا وشجاعة ، وانما هو الشاعر العربى الذى لم يتعد غالبا حدود نفسه ولم يشأ أن ينظم سوى أغنياته التى يعبر فيها عن لحظة له هنيئة ، وأخرى حزينة .

وينشد الشاعر فى مديح النبى ، المبعوث رحمة مهداة قصيدته وهى احدى قصائد الملحمة :

طبت حيا وميتا ورسولا ... واصطفاك الذى اصطفى جبريلا

يا حبيب الرحمن ، يا رحمة ... مأمولة الجود ، يا ندى مأمولا

خاتم الأنبياء جئت لتهدى ... موكب الانسانية الموصولا

أنت من ردد الاله ثناء الذكر ... فيه ، ونزل التنزيلا

ومشى ذكرك العظيم جليلا ... فى ضمير الزمان جيلا فجيلا

أن خفاجى مطلع اطلاعا واسعا على أمهات الكتب الدينية ، وخاصة كتب التفاسير ، وتاريخ الاسلام ، والسيرة المحمدية . ويغوص عمقا فى

تفاصيل الأحداث ، واستخلاص العبر منها .

لذا لا مشاحة فى أنه ، وهو الشاعر الاسلامى النابه ، خير مَن يؤرخ للسيرة المحمدية شعرا . لكنه لم يلجأ الى التاريخ العلمى ، وانما غربل الأحداث وأغفل التفاصيل ، وصاغ شعره فى الأحداث الجسام ، وفى الأيام التاريخية والمواقف الحاسمة فى تاريخ الاسلام . لذا فالملحمة الاسلامية انتقاء، أراد به شاعرها أن يسمو الى العلياء نحو المنزلة السامية الرفيعة للدين الحنيف . فاختصر التفاصيل والأحداث العادية ، ووقف عند كبريات الأمور، يصف ميلاد الرسول ، ونزول الوحى ، والهجرة من مكة الى المدينة، والغزوات الكبرى ،والاسراء والمعراج ، ورسائل الرسول الى الملوك والأباطرة يهديهم فيها الى الدين الجديد ، حتى وفاته ، على النحو الذى بيناه .

ولم يشأ الخفاجى أن يزحم ملحمته بأسماء شخصيات ورد ذكرها فى كتب التاريخ ،واكتفى بذكر القليل من الأسماء البارزة ،فيما تقتضيه ضرورة البيان . حتى يصفو ذهنه للمعانى والعظات والعبر .

فما صاغ شعره الا من أجل ذلك،فارتقى بقارئه،وجعله يعيش معه فى نور الوحى وضيائه .

وقد أشاد فى الملحمة بالمدينة المنورة ،ومدح أهلها .جاء ذلك فى مواضع شتى منها ،فى وصفه للهجرة من مكة الى المدينة ،ووصفه للمدينة بأنها الحائط المكين الذى حمى الكعبة الشريفة ،كما نوّه بسير الصحابة والمؤمنين من أهلها ،لمؤازرتهم النبى الكريم ،وبطولاتهم فى الغزوات والمعارك .كما أنه حين اختتم الملحمة ، آثر أن يكون مسك الختام الاشادة

المتجددة بمدينة السلام والنور .

وفى الملحمة اشادة ومديح للرسول الكريم ، وما أكثر خطابه له ، كما نعتد بكل الأسماء التى عُرف بها : محمد ، أحمد ، مصطفى ، طه ، المدثر ، المزمل ، البشير ، النذير ، والمديح النبوى غالب على الملحمة كلها، من أولها حتى آخرها . وما أجمل الوقوف عند وفاته ، وحزنه الشديد ، فتأتى أبياته مشبعة بالأسى .وهو يصور لحظة صعود روحه الى الرفيق الأعلى، الى بارئها ، راضية مرضية .

ولم يعمد الشاعر فى ملحمته الى مهجور اللفظ أو غريب المعنى ، وجاء شعره سلساً واضحاً ، يستمد عمقه من وضوحه ونصاعة بيانه . جاءت الملحمة أو ديوان المدائح النبوية فى صورة فنية مشرقة ، تجتذب القارىء العادى ، ويقف على معانيها ومضامينها بسهولة ، فينتقل اليه الاحساس التلقائى بروعة ما يقرأ فى مديح النبى الكريم . كما ينبهر القارىء المتبحر فى الثقافة العربية ، بالأسلوب السهل الممتنع ، المعبر عن كبريات الأحداث فى تاريخ الاسلام ، بألفاظ مألوفة وجمل قصيرة متماسكة .

وتتميز الملحمة بأوصاف متباينة تكتمل بها صورة الرسول الكريم ، الجامع لكل الصفات المثلى .كما يلجأ الشاعر الى التكرار غير المخل ، ويكثر من أسلوب النداء ،ليجعل قارئه فى مجال حضور ،ويقربه من دائرة الوجد ،أو حالة الوجدان التى يعيشها الشاعر ، ويتعايش معها . وتأمل معى المقطوعات الشعرية لقصيدة (ملحمة الضياء) ، لنقف على أدوات الشاعر الفنية ، كاستخدامه أسلوب النداء وأسلوب الخطاب لتقريب الصورة. فهذان الأسلوبان يخدمان الصورة الفنية ، من حيث تقريب المعنى ، ومعايشة

القارىء للصورة الشعرية ، ويجعله فى حالة حضور ، متعايشاً مع دائرة الوجد . ولنأخذ احدى هذه المقطوعات كمثال ، حيث يخاطب فيها بيت الله الحرام ، فيقول (١) :

أنتَ ضوء من السماء جميل — أنتَ وجه من السلام نبيل

أنتَ غيث من السماح ، ونيل — أنتَ للناس فى الخطوب مقيل

أنتَ يابيت كوكب وضاء — أنتَ يابيت دارة للرجاء

تأمل ضمير المخاطب (أنت) وتكراره ، وأسلوب النداء (يا بيت)، وتدفق المعنى دونما خلل أو ابهام . فوضوح الصورة الشعرية هدف أساسى يصبو اليه الشاعر . وبالملحمة كثير من الصور والمعانى والأخيلة التى تستحق الوقوف عندها . وتعد تلك الملحمة الدينية الفريدة نبراسا لكل شداة الأدب ومتذوقيه . ذلك لأن الشاعر الخفاجى شاء صياغة ملحمته هذه بدافع أهمية السيرة واعجاز صاحبها البشير النذير . يقول الشاعر فى مقدمة الملحمة : " السيرة النبوية الخالدة معجزة كبرى من معجزات السماء . . وملحمة رائعة من ملاحم المجد والنضال والكبرياء . . وبطولة رفيعة ليس لها فى تاريخ البشرية كلها مثيل ".

وفى المقولة ، نقف على الدافع الذى حدا بالشاعر أن يصف ما كتب من مدائح نبوية ، وانتشار دينى ، بأنه ملحمة ، لكن ملحمته ذات خصوصية وتفرد ، ويميزها عن الملاحم الأخرى ، فملحمته ليس لها مثيل فى تاريخ الانسانية كلها . . هى ملحمة تفوق سواها من الملاحم بصدقها واعجازها الحقيقى ، وبعدها عن الخوارق والبطولات الزائفة ، وقربها من مناهل النور الالهى .

البحث عن الجذور

يستهل الخفاجي مسرحيته (نشيد الصحراء) ، بموكب الجنود الأبطال العائدين من القتال ، بعد انتصارهم . وهم من الأخيليين والخفاجيين . تهرع ليلى الأخيلية ومعها فتيات القبيلة وسيداتها للترحيب بالأبطال ، وتنشد شعرا ملؤه الفرحة والزهو والفخر . ويرى توبة الخفاجي - أحد الأبطال - وجهها الساحر ، فيجدها ملاكا كريما وحورية ساحرة . ويكتب عمه مسلم الخفاجي زعيم القبيلة رسالة تهنئة الى عبد الله والد ليلى الأخيليين ، فيحملها توبة وملؤه الشوق لرؤية ليلى ، التى تستقبله ، وحين يطلب ماء ، تقدمه له مرحبة به . ويشكرها على نشيدها الذى رددته الصحراء ، وسمّاها (شاعرة الصحراء) . ثم يظهر لها مكنون فؤاده ، ويصارحها برسالة يحملها الى أبيها زعيم القبيلة . ويستقبله عبد الله مرحباً، ويشكره هو وعمه على الرسالة ، ويتركه مع صحبه لينالوا قسطاً من الراحة. وحين يرى ليلى ، يتغنى بحسنها وسحرها . ويرد عبد الله على الرسالة برسالة شكر ،يحملها توبة عائدا الى دياره ، وقد عز عليه فراق ليلى . ويرى فى الطريق غزالا جميلاً ، فيذكر جمال ليلى وسحرها ، ويقع مغشياً عليه .

ويتجه الى الحى الذى تقيم فيه ليلى ،ويقترب من خبائها ،فتقابله ، لكنها تلومه لانشاده شعرا تغزلا فيها ، ردده الناس ،بينما الحب سر لا يذاع. وتطلب أمها أن تقدم له الزاد ، وطمأنته قائلة : " ليلى زهرة لن يقطفها سواك يا توبة " . ويعرف الناس حب توبة لليلى، فيقصدون والدها ،

ويصارحونه بأن توبة يقول شعرا فى ليلى ، ويتوعدون ويهددون بقتله . تبادره ليلى كى ينجو بنفسه . لكنه لا يأبه لتحذيرها ، ويتنكر فى زى أعرابى فقير ، لكن أحد أفراد القبيلة عرفه ، فصرعه توبة وفر هارباً فى فيافى الصحراء ، الى أن سقط من على فرسه جريحاً .

يرفض والد ليلى تزويجها منه ، امتثالا لرأى القبيلة التى أجمعت على أنه تغزل فى ليلى ، وهذا يعيب القبيلة . واستقر الرأى على تزويجها من (سوار) . تمتثل ليلى لرأى القبيلة ورأى والدها ، مرغمة ، وتتزوج (سوار).

ومازال توبة مستهاما بحب ليلى ، رغم زواجها . ورأى عمه أن يزوجه ابنته ، التى تفوق ليلى حسنا وجمالا ، لكنه على حب ليلى مقيم . فيزور حيها ، لكن تنهاه ليلى حرصا على حياته . وذهب سوار الى أمير الصحراء يشكو له من توبة الذى لا يحيد عن حبه لليلى ، فيحل الأمير دمه ان اقترب من حى ليلى .

ويبلغه سوار بنفسه بما قضى به الأمير . لكن توبة ما زال ينشد أشعار الغزل ، ويقتفى فرسان (العقيليين) أثر توبة ليقتلوه . يتربصون به فى الصحراء الممتدة ، حتى يردوه قتيلا . تزور ليلى قبره وتبكيه . وتسقط من فوق جملها ، فتموت وتدفن فى الهضبة بجوار توبة ، ويبكيها زوجها سوار.

وتنتهى المسرحية ،أو قصة الحب العذرى بين توبة الخفاجى وليلى

الأخيلية . وهى قصة من التاريخ العربى ،تذكرنا بقيس بن الملوح وليلى العامرية . نفس الاتجاه(الرومانسى) ،والهيام فى الصحراء ،والتغزل فى محاسن الحبيب ، وعشق الروح يصل بالعاشقين الى منتهاه ،فيصبح العاشق ويمسى ولسانه يلهج باسم الحبيب ، وقلبه ينبض بحبه . لعل المؤلف أراد أن يُحيى قصة جديدة من قصص الحب العذرى العفيف ، وهى قصة غير مطروقة ، أو أنها لم تنل من الشهرة والذيوع ما نالته قصص الحب العربية الأخرى . وقد اشتهرت قصة قيس المجنون بحب ليلى العامرية ، وهذه ليلى أخرى ، حتى قيل المثل : " كل يغنى على ليلاه " ! وأصبح اسم ليلى رمزاً لكل ما هو سام وراق وعفيف ، وارتبط الاسم بكل ما يسمو بالنفس الانسانية ويرقى بها الى مدراج الكمال . وتنتهى القصة التى بين أيدينا بموت توبة ، ويعقبه موت ليلى فتدفن بجواره ، اذ لا حياة لحبيب بعد فراق حبيبه، فهما لا يفترقان فى الحياة ، وان افترق جسداهما بفعل تصاريف الحياة وتناقضاتها ، الا أن روحيهما تتلاقيان وتتناجيان ، وتتهامسان بشعر راق . ولعل قصص الحب العذرى فى التاريخ العربى تذكرنا بروميو وجولييت رائعة وليم شكسبير ، تلك القصة الخالدة التى انتهت بانتحار الاثنين حتى لا يفرق بينهما انس .

تهتم المسرحية بالأحداث الرئيسية ، وتختصر التفاصيل ، وأغفلت تفاصيل العلاقة العاطفية التى ربطت توبة بليلى ، واكتفى المؤلف ببيان نبض القلبين ، مؤمنا بأن الحب يولد من أول نظرة . وحين شبب قيس بن الملوح بليلاه ، كان يذكر ذكريات الحب ومراتع

الهوى ، بعد حرمانه منها، وزواجها من ابن عمها . وعلى عكس ذلك ، فان الرواية التاريخية دللت على أن ليلى الأخيلية هى التى رثت توبة بقصائد عديدة جمعها الدكتور خفاجى فى دراسته التحليلية ، وأورد أحاديث ليلى عن توبة فى مجالس الخلفاء والأمراء ، وهى أفصح الشعراء لسانا ، كما شهد لها (الحجاج) ، وهى التى قال لجلسائه عنها : " أتدرون من هذه ؟ قالوا لا والله أيها الأمير انا لم نر قط أفصح لسانا ولا أحسن محاورة ولا أملح وجها ولا أرصن شعرا منها " .

وقال عنها أيضاً : " هذه ليلى الأخيلية التى مات توبة الخفاجى من حبها " . كما أورد الخفاجى من الشعر قصائد عديدة من مراثى ليلى فى توبة . لذا فان الأخيلية فاقت حبيبها فى قرض الشعر . تغيرت الصورة ، فليلى - ربما - أظهرت حب توبة لها ، وأشادت ببطولته . ويقول عنها صاحب الأغانى : " من النساء المتقدمات فى الشعر من شعراء الاسلام " . ويضعها ابن قتيبة كواحدة من أشعر النساء بعد الخنساء . لهذا تختلف قصة حب (توبة وليلى) من زوايا عديدة عن قصة حب (قيس وليلى) .. فالأولى لها أسانيد تاريخية، وحقائق ذكرتها كتب التاريخ والأدب ، والثانية لا نسمع لها سندا من الواقع ، وبقيت أشعار المجنون - كما سموا قيس بن الملوح - تشبيبا فى ليلى . وفى مسرحية الخفاجى ، التزم المؤلف بالوقائع التاريخية . وضمّن مسرحيته وقائع العلاقة العاطفية ، بعيدا عن التفاصيل ، وبحكم موقعه مفكراً وأديباً وشاعراً ، ومحققاً للكثير من كتب التراث الأدبى

والديني والتاريخي .. وقد دفعته أمانة المنهج التاريخي ، في أن يجعل مساحة الخيال ، خيال الشاعر ، في سرد الأحداث ، محدودة .. وشاء أن يقدم للقارىء قصة حب عربية ، في قالب مسرحي سلس ، بعيدا عن الاغراب والطنطنة ، قريبا من التصور التاريخي ، كما روته كتب الأقدمين .

والحب العذري يبلغ مداه ، حتى يوصف الحبيب بأنه جُنّ بحبيبه . يقول قيس رداً على قول ليلى بجنونه (١) :

قالت جننتَ على ذكرى فقلت لها   الحب أعظم مما بالمجانين

وتقول ليلى في قيسها (٢) :

لم يكن المجنون في حالة   الا وقد كنت كما كانا
لكنه باح بسر الهوى   وانني قد ذبْت كتمانا

ولعل شهرة قيس غطت على بعض قصص الحب العربية ، ومنها هذه القصة ، التي يرجع خفاجي فضل تقديمها للقارئ مرتين ، مرة في قالب مسرحي ، وثانية في دراسة تحليلية ، وفي كلتيهما متعة وفائدة .

وفي مسرحية (نشيد الصحراء) يسلط المؤلف الأضواء على عادات العرب وطباعهم ، والخلق الكريم العربي ، تذكر من ذلك ما يراه رجال القبيلة العربية من عيب كبير في أن يقول رجل شعر غزل في امرأة قبيلتهم ،

---

(١) حسني سيد لبيب : مقال (لغة العيون في شعر بشار) ـ (المجلة العربية) السعودية ـ محرم ١٤٠٩ هـ (أغسطس / سبتمبر ١٩٨٨ م) .

(٢) د / زهران محمد جبر : صفحات من الفكر المعاصر ـ ص ١٢١ / ١٢٢ ، نقلا عن كتاب حليم متري (رائد في الأدب المعاصر)

ومن الخفاجيين أسر حاكمة فى حلب فى القرن الخامس الهجرى ، وفى العراق فى القرن الرابع الهجرى . وكانت ولا يتهم فى الناصرة بقرب الكوفة وكان يتولاها نهم أمير بعد أمير . وكانوا فى شبه استقلال داخلى عن الخلافة العباسية .

ان هذا الماضى العريق يحمله الخفاجى فى قلبه ودمه وأعصابه ، ويقف يزود عنه بايمان راسخ وعبقرية حادة وقوة ضخمة تعاونه على كفاحه فى الحياة .

ولعل بحثه عن الجذور هو الذى حدا به الى تقصى سيرة حياة الشاعر توبة ، سليل بنى خفاجة ، كما أبان وأوضح الأستاذ حليم مترى فى سطوره السابقة . وهو ذات الدافع الذى جعله يكتب أكثر من مؤلف عن بنى خفاجة فى التاريخ والأدب ، ويؤرخ لهم .

وكما ثابر فى البحث عن جذور السلالة الخفاجى ، وقدم أبرز أعلامها، وأرخ لحياتهم ، فقد دفعه حبه للوطن الى كتابة مؤلفه (من تراث مصر الاسلامية) وغيره من مؤلفاته أخرى ليس هنا مجال حصرها . وانما تكفى الدلالة على أنه عاشق لوطنه مصر . فعكف على كتب الأقدمين ، ليكتب عن التراث الاسلامى فى مصر الفسطاط والأزهر ، وفى مصر البطولات . وفى مجال الشعر فكثيرة قصائده التى صاغها فى حب مصر . يذكر مصر الوطن ، مصر البطولات والانتصارات ، مصر الحضارة ، مصر الاسلامية . وحين يتحدث عنها ، نجد كل هذه المفردات والمعانى تتفاعل فى قصيده، مكونة اسم مصر . فى مستهل قصيدة (الله أكبر) (١) يقول : «الله أكبر ، هذه مصر » . . بدأ بالتكبير ، والرمز الدينى يشير الى مصر . وتأمل اسم الاشارة ،ففيه اشادة وفخر واعتزاز . والتكبير هنا ، اتقاء للحسد، سلوك المصريين الشائع ، والاستهلال ببساطته يشى بالبلاغة ، أو هو السهل الممتنع . والبساطة تجعل أشعاره سهلة التداول والذيوع الكبير على ألسنة عامة الناس . و (الله أكبر) هو النداء الأثير على ألسنة صناديد مصر فى حرب العاشرمن رمضان ، وهم يعبرون أكبر مانع مائى ،وخط بارليف الحصين ،فى ملحمة كبرى لا يقدر على تحقيقها الا رجال مؤمنون. ويستعرض انتصارات مصر ،فى هذه الحرب ،ثم يسترجع أمجاد الماضى ، فى حطين وعين جالوت . . ويذكر المدن التى تعرضت للعدوان وتصدت له ببسالة منقطعة النظير ،يذكر رشيد وبورسعيد والسويس والمنصورة ،ويذكر دار لقمان التى أسر فيها لويس . .ويصارح الناس بمنبته ، المنصورة ، معتزا

(١) خفاجي : احلام الأمس (الزورق الحائر) ـ ص ٥٠ ـ ٥٥ .

بتاريخها الوضئ ، درءا لحظر كان يهدد مصر كلها .. « هزت بطولتك الزمان وما مس الحمى وبنى الحمى ضير» وتأمل قوله « منصورتى ففيه اعتزاز وانتماء . ويختتم القصيدة مرددا :

مصر التى فى مهجتى أبدا

هى موطنى والروح والفخر

ميم ، وصاد ، بعد حرفهما

راء ، فقل لى : انها مصر

يتهجى حروف الاسم على نسق مؤلف الأحاجى ، ثم يكشف الحل، ثم يكشف الحل ، ناطقا اسمها بفخر واعتزاز .وفى الختام يقول : « انها مصر » مؤكدا الاسم ، فحقق تدويرا بين الاستهلال والختام . ففى الاستهلال يردد : «الله أكبر ، هذه مصر » وفى الختام يردد : « فقل لى : انها مصر » .

ويهتف فى قصيدة أخرى : (عشت حرا يا وطنى) (١) . وفى (الشهداء) (٢) يمجد شهداء الكنانة ويتحدث فى ختام القصيدة عن أيادى مصر وتضحياتها :

لا تظنوا أن الكنانة بيت ... شاده الوهم وابتناه الخيال

منجم ينبت البطولات مصر ... وعرين يحمى حماه الرجال

لم تزل تحمل الحضارة للدنـ ... ـيا ، وتمشى فى ظلها الأجيال

---

(١) خفاجى : أحلام الأس (الزورق الحائر) - ص ٥٦ / ٦٠ .

(٢) المصدر السابق - ص ٨٤ / ٨٨ .

فمصر لها فضل على العالم كله ، بحضارتها ، وهى كعبة الشرق .

ويعيد الحديث عن انتصار الشعب فى قصيدة (وطنى الحر) (١) . ويتطرق الى الحديث عن أبنائه الكادحين من الفلاحين والعمال . كما أن الشاعر حين يرثى أدباء ومفكرين وغيرهم ، يستعرض مآثر هؤلاء الراحلين ومناقبهم، ولا يفوته الفخر بأولئك الأفذاذ ، أبناء مصر البررة . والرثاء لا يكون الا لعظيم وعزيز . والعظماء الأعزاء أنجبتهم أرض الكنانة .

وهذا يعبر عن رهافة حس الشاعر ، واعتزازه برموز وطنه من الزعماء والمفكرين والمصلحين والفنانين ، ويدل أيضاً على أن مصر هى شغله الشاغل، تعيش فى خاطره ومهجته . وها هو ذا يرثى أنور السادات ويصفه بأنه (شهيد السلام) (٢) :

اذا أنا لم أرثِ أنــور مصــــر

فما الفرق بينى وبين اللئــــام

فنم فى رحــاب الخـلود عليـك

من الله ، من شعب مصر ، الســلام

وفى ذكرى على مبارك يدبج قصيدة (٣) يلقبه فيها بابن مصر ، الذى " أيقظته قضية الوطن الدامى / وفى كف خصم مصر الرماح " . وفى البيت الأخير يخاطب على مبارك :

لاح من رمســك الضياء لمصـر   وجماهير الشعب بالمجد صاحوا

(١) المصدر السابق ـ ص ٨٩ / ٩١ .

(٢) المصدر السابق ـ ص ٩٥ / ٩٨ .

(٣) الصدر السابق ـ ص ٩٩ / ١٠٣ .

وفى مهرجان شوقى وحافظ ينشد (وحى السماء) [1] ، يصفهما بأنهما هبة النيل ومصر . ويخاطب مصر التى فى مهجته :

مصر ياداري وياوطن الفكـــر، لقد عشت حمى الأدبـــاء

أنت من أنجب للمدنيـات جميعاً صفـوة العلمـــاء

وتتسابق الأبيات ، فى قصيدة اثر أخرى ، من قصائد رثاء لبنى مصر الراحلين ، ويجدها فرصة سانحة ليذكر مصر التى لا تنسى بنيها ، وتتزاحم المعانى ، ممزوجة بالأخيلة والصور ، فيزاوج بين الفخر بمآثر الفقيد ، والفخر بمصر التى أنجبتهم . وفى ذكرى توفيق الحكيم ، يشيد بمصر ، وفى ذكرى المهندس أحمد عبده الشرباصى يصوغ رائعته (عاشق النيل)[2]، فيكتب عن مصر التى أحبها الفقيد ، وتجيش بصدر الشاعر صور أثيرة ، ويلهج لسانه بذكر الوطن المفدى سواء كان شعره فى رثاء أبنائها العظام ، أو تمجيدا لها ولانتصاراتها ولأمجادها ولحضاراتها ، وللدين الراسخ فى نفوس أبنائها . كما يتوجه الى الامام الشيخ محمد متولى الشعراوى بقصيدة[3] يستهلها بقوله :

شيخ الدعاة ورائد العصـر كل المنى والحب من مصـر

والأبيات التى استشهدت بها ، غيض من فيض ، فهو يوزع حبه لمصر على قصائد دواوينه الشعرية . فقد أحب مصر ، ولهج بأسمها مفتخراً بانتسابه اليها . وحب مصر دليل الانتماء والولاء . وواجب يؤديه

(١) المصدر السابق ـ ص ١٠٤ / ١٠٩ .
(٢) المصدر السابق ـ ص ١١٤ / ١١٨ .
(٣) المصدر السابق ـ ص ١٤٦ / ١٢٥ .

كل شاعر محب لوطنه ، يدرك بحسه الوطنى أنه جزء من هذا الوطن ، يعلو بعلوه ، ويسمو بسموه . وحب الوطن من صفات المواطن الصالح . والملاحظ أن الدكتور خفاجي يحلق بشعره بجناحين ، الأول يخفق براية الاسلام ، والثانى يخفق براية مصر . والجناحان لطائر واحد ، ولا يكون هناك طيران الا بالجناحين معاً ، فيعلو ويعلو فى سماوات عليا ، ولا غرو فى ذلك ، فمصر الوطن بلد اسلامية تزهو بآلاف المآذن والأزهر العريق والآثار الدينية الأخرى ، الى جانب آثارها الفرعونية القديمة .

تتألق مصر فى خاطره ومهجته ، وتزهو صورتها ، ولا يألو جهداً فى ترديد اسمها فى كل محفل . وفى وداع زوجته ، يشبهها بأيزيس " أسطورة جاءت من الزمن البعيد / ومثلت ايزيس فى القدم " (١) . وحين يدبج قصيدة فى ذكرى على مبارك باشا ، يحتفى بذكرى (ابن مصر) الذى شب على حب قريته منذ الصغر .

ويذكر حبه العميق لمصر . كذلك يحتفى بذكرى توفيق الحكيم ، مستهلاً قصيدته باحتفاء مصر كلها ، فيقول (٢) :

مصر ترنو اليك والمهرجان   وبذكراك بات يشدو الزمان

مصر فى قلبك الكبير هى المجد   هى الحب والهوى النشوان

مصر فى ثغر الدهر أغنية خضراء   غنتها فى الضحى الوديان

مصر فى نثرك الرفيع هى اللحن   هى الدنيا والمنى والأمان

---

(١) الخفاجى : أحلام الساء ـ قصيدة (لحن الوداع) ـ ص ١٩٥ .

(٢) المصدر السابق ـ قصيدة (توفيق الحكيم فى ذاكراه) ـ ص ٢٠٣ .

وتكرار (مصر) أول كل بيت ، اعلاء للقيمة واعتزاز بالاسم ، فحين يشيد بالحكيم ، فان الدافع للاشادة ولاء الحكيم لمصر وحبه لها . فالانتماء للوطن هو القيمة الحقيقية للانسان . واللامنتمى لا هوية له ، ولا ملامح تحدد شخصيته .

عوده الى رسم ملامح الشخصية

ولد الدكتور خفاجى فى قرية صغيرة تتبع مركز المنصورة ، تسمى (تلبانه) ، فى ٢٢ يوليو عام ١٩١٥ . وفى أحضان الريف الساحر ، ووسط الفلاحين البسطاء الكادحين ، نشأ الخفاجى وتربى ، وفى ابان الحرب العالمية الأولى ، وما تبعها من أحداث الثورة المصرية عام ١٩١٩ ، وفى نشأته الأولى ، تطلع الى صور الكفاح للشعب المصرى من أجل استرداد حريته وتحقيق آماله . عاش الخفاجى هذا الكفاح الطويل خطوة خطوة ، فنما لديه الاحساس اليقظ بقضية الوطن وعزته واستقلاله . ولم يترك قريته هذه الا للدراسة ، لكنه ظل وفيا لها بارا بأبنائها البسطاء . ومن خلال عيشته الريفية المتواضعة ، واحساسه بمعاناة المواطن المصرى البسيط ، واستشرافه قضايا الوطن منذ نعومه أظافره ، تولد لديه أحساس ظل يتعمق ويتنامى بحب هذا الوطن ، والولاء له . لذا ، عاشت مصر فى مهجته ، ومنذ الصغر ، حتى شب عن الطوق وكبر ،فصاغ أبيات القريض تمجيدا لها، واعتزازا بها ،وطنا حرا بين الأوطان.ولم يفقد ايمانه بالله والوطن، وبالشعب الذى اليه ينتسب. . "ومن أهم ما ظهر على الخفاجى فى هذه الفترة [1] الاتجاه الوطنى الذى دفعه الى الكفاح فى سبيل وطنه فى الأزمات السياسية التى مرت بمصر منذ عام ١٩٢٤ وكان رئيس اتحاد طلبة أبناء الشرقية فى مدينة الزقازيق،وكان هذا الاتحاد قوة كبيرة سياسية فى هذه الفترة،والخفاجى والشعراوى وأصدقاء لهما هم الذين كونوه.وكانت مؤتمراته الوطنية تنتشر فى الصفحة الأولى فى جريدة الجهاد المصرية وفى

(١) يقصد الفترة بين انتقاله عام ١٩٢٧ الى الزقازيق للتعلم ، وتخرجه عام ١٩٣٦ فى معهد الزقازيق .

شتى الصحف فى هذه الفترة " [١] . وفى دراسته الجامعية شارك الخفاجى مع زملائه فى الحركة الوطنية ، وعمل أحيانا فى الصحافة .

والخفاجى أديب محب لوطنه مصر ، معتز أيما اعتزاز بتاريخه ، فكتب العديد من مؤلفاته ، منها :

(مواكب الحرية فى مصر الاسلامية) و (الأزهر فى ألف عام) و (التراث الروحى للتصوف الاسلامى فى مصر) ، وحقق (ديوان الامام الشافعى) ، علاوة على كتابه الأخير (من تراث مصر الاسلامية) .

والخفاجى الشاعر يشيد بالوطن ويتغنى بانتصارته وأمجاده ، فمصر فى مهجته راية خفاقة ، يذكر تاريخها وأبطالها وأعلامها ، وينشد فى حبها أجمل القصيد . . ومن شعره الرائع فى مناجاة مصر ، والاعتزاز بتراثها الاسلامى ، نقتطف هذه الأبيات من قصيدته (عيد سيناء والوطن) [٢] :

يامصر ياوطن التاريخ ياحلما   عشنا نغنيه فى أيامنا الجـدد

---

(١) د. زهران محمد جبر : صفحات من الفكر المعاصر ـ ص ١٢٢ ، نقلا عن كتاب حليم مترى (رائد فى الأدب المعاصر) .

(٢) خفاجى : أشواق الحياة ـ ص ٩٠ .

جامعة الفسطاط الاسلامية

الابحار فى كتب التراث له متعته الخاصة ، حيث نسترجع الماضى بمعالمه وعاداته وثقافاته ، وسلوكيات ناسه ، وأعلامه البارزين . ومن الكتب التى صدرت عن التراث الاسلامى فى مصر ، هذا الكتاب لشيخ الأدباء الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى ، بعنوان : (من تراث مصر الاسلامية)[1].

يبرز الكتاب الصفحات المضيئة من تاريخ مصر الاسلامية ، منذ بدء الفتح الاسلامى العربى لها عام ٢٠ هـ (٦٤١ م) . حيث قامت أول جامعة اسلامية ، هى جامعة الفسطاط ، التى كانت منارة ثقافية للعالم الاسلامى من أقصاه الى أقصاه ، وأدت الجامعة رسالتها الدينية والفكرية والعلمية على أكمل وجه .

يقول الدكتور خفاجى فى تصديره لهذا الكتاب الهام : " واذا عددنا المسجد الحرام فى مكة والمسجد النبوى الشريف فى المدينة فى عهدها الأول جامعتين . كانت الفسطاط عند إنشائها هى الجامعة الاسلامية الثالثة فى العالم الاسلامى " [2] . وقد أدت هذه الجامعة الجامعة الكبيرة رسالتها حتى نهاية القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) . . حيث حملت جامعة الأزهر الشريف الراية من بعدها .

واذا توقفنا عند فترة فتح مصر ، تخصيصاً ، بقيادة عمرو العاص ، لاحظنا أنها لم تحظ بالعناية الكافية . وذاعت شهرة الجامع الأزهر الذى بناه

---

(١) خفاجى من تراث مصر الاسلامية ـ رابطة الأدب الحديث ١٩٩٦ ـ ص ١٢٤ .

(٢) المصدر السابق ـ ص ٩ .

الفاطميون ، والقاهرة المعزية ، رغم أن جامع عمرو أول جامع بُنى فى مصر، فقد تضاءل الحديث عن هذا الجامع العتيق ، وعن مدينة الفسطاط عاصمة مصر فى ذلك الزمان . . رغم أهمية الجامع ،وأهمية المدينة تلك المنارة الاسلامية السامقة،عبر عدة قرون من الزمان.وكان كتاب الدكتور خفاجى شعاع ضوء كاشف،يحدثنا فيه عن جامع عمرو بن العاص، والمسجد والجامعة،وعن مدينة الفسطاط . . ،وعن أبرز الأعلام،ومنهم الامام الشافعى،الذى ذاعت شهرته،وأولاه الكاتب عناية فائقة.ذلك العالم الذى ولد فى غزة يوم وفاة أبى حنيفة،فقال الناس: "مات امام وولد امام". والذى يقول خفاجى عنه : " ورأى الناس عالماً من قريش،يجلس فى جامعتهم للتعليم،يصلى فلا يرون أحسن صلاة من صلاته،ويتحدث فلا يسمعون أعذب حديثاً من حديثه،مع صباحة وجهه ، وواسع كرمه ، وعلو كعبه ، فافتتنوا به ، وواظبوا على الجلوس فى حلقته " (١) .

ولما وفد الامام الشافعى الى مصر ١٩٨ هـ ، أقام بالفسطاط ، وتصدر حلقة عظيمة فى مسجد عمرو ، الذى كان مركز نشاطه العلمى الدينى ، وأملى فيه مذهبه الجديد ،وتخرج على يديه عشرات العلماء الذين دونوا المذهب ، ونشروه ، أمثال : الربيع بن سليمان المرادى ، والبويطى، والربيع الجيزى الذى قام بجمع وترتيب كتاب (الأم) بعد البويطى وسعيد ابن عفير ، والحسين بن عبد السلام .

وعن المذاهب الفقهية الأربعة،يتحدث الخفاجى عن نشأتها فيقول: " ومن جامعة الفسطاط انتشر مذهب الامام الشافعى على أيدى تلاميذه،ومن قبل كانت السيادة للمذهب المالكى الذى كان أول من أعلنه في مصر ونشره

(١) المصدر السابق ـ ص ٥٣ ، ص ٤٧ .

فيها عثمان بن الحكم الجذامى،ومن شيوخ المالكية فيها أصبح بن الفرج،كما كان أول محاولة لنشر المذهب الحنفى فيها على يدى القاضى اسماعيل بن سميح الكندى،الذى ولاه العباسيون عام ١٦٤ هـ قضاء مصر، فعمل على نشر مذهب الأمام أبى حنيفة فيها.أما الحنابلة فكانوا قليلين"(١).

وقد تعهدت الامام الشافعى بالبر والرعاية السيدة نفيسة بنت الحسن الأنور ، حفيدة زيد بن الحسن بن على .. " وكانت قد هاجرت الى الفسطاط عام ١٩٣ هـ ، وأقامت فيه ، فرارا من اضطهاد العباسين للبيت العلوى " (٢) .

كما يحدثنا عن الصحابى الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص ، الذى اشتهر عنه حفظه للأحاديث النبوية التى سمعها عن الرسول الكريم . ودونها فى حضرته وباذن منه،فى صحيفته الصادقة،تلك الصحيفة التى كان يحملها معه حين قدم مصر واستقر بها.وكان أول من أقام حلقات العلم والدرس فى مسجد الفسطاط الشامخ.كما شيد داره فى مدينة الفسطاط على صورة الكعبة الشريفة.وأرجع المؤلف الفضل فى تأسيس اللبنة الأولى للجامعة الاسلامية للصحابى الجليل عبد الله بن أمير مصر عمرو العاص. وان كان هناك رأى آخر بأن يزيد بن حبيب الذى بعث به عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموى الى الفسطاط هو المؤسس الأول لهذه الجامعة.ويحسم الدكتور خفاجى هذه النقطة،من جانبه ، فيقول:" ان عبد الله بن عمرو بن العاص كان بمثابة الروح البانى للحلقات العلمية الجامعية فى جامعة

(١) خفاجى : من تراث صر الاسلامية ـ ص ٤٠ / ٤١ .

(٢) المصدر السابق ـ ص ٥٣ .

لفسطاط، وقد أخذت هذه الحلقات تكبر وتنمو شيئاً فشيئاً ، وتتسع دائرتها، وتفيد العقل المصرى الاسلامى الجديد فائدة جلى ، ويكون زيد بن حبيب تاليا لعبد الله بن عمرو بن العاص فى ذلك المجال " (١).

كما أن السيوطى يذكر فى كتابه (حسن المحاضرة) أن يزيد بن حبيب كان " أول من أظهر العلم بمصر ، وبين المسائل فى الحرام والحلال وكان الناس قبله يتحدثون فى الترغيب والترهيب والملاحم والفتن " .

ومن أعلام جامعة الفسطاط وعلمائها ، يذكر الكاتب الكثير من العلماء .

ويحدثنا – ايضاً – عن أدباء العصر وشعرائه ، بأسلوب سهل ميسر ، مع عدم اغفال للمصادر التى استقى منها مروياته . وهذا اعجاز للمحقق البليغ الذى يتحلى بأمانة النقل ، مع ما يتكبده من مشقة وعناء ، وحرصه على العبارة السلسة . كما يحدثنا عن شعراء مشهورين قدموا الى مصر ، ونزلوا الفسطاط ، وقصدوا جامع عمرو ، الذى " ظل كعبة الأدباء والشعراء يجتمعون فيه كلما سنحت فرص الاجتماع لعقد الأسمار والمطارحات الأدبية " . . ومن الشعراء الذين قصدوه نذكر : أبو تمام ، وأبو نواس ، وأبو الطيب المتنبى ، وغيرهم من كبار الشعراء . .

وتبرز أهمية الكتاب فى تسليطه الأضواء على جامعة الفسطاط ، ودورها العلمي الرائد لا يقل أهمية عن دور جامعة الأزهر وعراقتها . . يقول الشيخ الجليل محمد متولى الشعراوى فى تقديمه لهذا المؤلف النفيس: أن الكتاب " يكشف لنا عن مأثرة خالدة لمصر الاسلامية ، عن

---

(١) المصدر السابق ـ ص ٣٨ .

كبرى قامت قبل الأزهر الشريف على ضفاف النيل ، هى جامعة الفسطاط الاسلامية ، التى عاشت أكثر من سبعة قرون ، تبلغ رسالة الأسلام فى كل مكان ، تخرج أجيالاً من العلماء تصدروا حركة الفكر الاسلامى والثقافة الاسلامية فى كل أنحاء الدنيا " (١) .

---

(١) خفاجى : من تراث مصر الاسلامية ـ ص ٣ .

رحلة الشاعر مع الأدب والفكر طويلة ، زاده الثقافة ، وحلم حياته كتاب يطالعه ، أو يحققه ، أو يؤلفه . . ويبقى الشعر واحة ظليلة يستريح فيها ، معبراً عن نفس تواقة الى حياة سوية يعمرها الايمان .

تُطوى صفحات العمر ، وأحلام تراوده ، وتهدهد مشاعره ، ولديه قناعة كاملة بأن الحياة كد وتعب ، ورضا بما قسمه الله . فتشيع فى قصائده روح التفاؤل والبشاشة . يقول فى قصيدة (أحلام) [1] :

أحلامنا الزاد الشهى ، وفى الهجير هى الظلال من الشقاء المارد

نجنى من الشوك الثمار ، تنال بالـ ايمان أحلى ما يكون لحامد

تتجسد خلاصة التجربة من خلال ديوانه الشعرى المبثوث فى أربعة عشر مؤلفاً ، فى أربعة عناصر تشكل هذا العالم ، الذى يحق أن نخصّ بها شعره ، وهى :

(١) خلاصة تجربة الحياة :

حيث لا تنقطع الصلة بتجارب السنين ، بما فيها من كد وعمل وارادة، واصرار على مواصلة الطريق . تُطوى صفحات عمره دؤباً فى حقل الأدب والفكر . واذا ما استظهر ما يجيش به فؤاده ، يضع نصب عينيه رحلة العمر التى عاشها ، لذا يكثر فى شعره الوجدانى ، المعبر عن ذاته ، مفردات مثل: صفحات العمر ، مرور الأيام والسنين ، ملخصا تجاربه ، موجزاً القول ، غير عامد الى تفاصيل ، وانما يعطى الخلاصة أو العصارة فى أبيات قليلة يرى فيها غناء ورواء .

---

(١) خفاجى : أنشودة الى القذ ـ ص ٢٠ .

(٢) النزعة التفاؤلية :

ويتسم شعره بنزعة التفاؤل ، المرتبطة بقناعة ورضا بما قسمه الله .. هى طمأنينة نفس ، وراحة بال ، قل من الشعراء مَنْ يتحلونْ بها .. وهى صفة لصيقة بطبيعته ، وانى أراها نابعة من الأيمان . لذا لا مشاحة اذا قلنا خفاجى ينضوى تحت لواء مدرسة الصفاء النفسى .

(٣) النزعة الايمانية :

وهى العنصر الرئيسى الذى يحقق له الصفاء والنقاء والرضا المقسوم . والنزعة الايمانية نابعة من قراءاته المتعمقة للقرآن الكريم والأحاديث النبوية، والفقة ، وسيرة الرسول العطرة ، وسيرة الصحابة ، ورحلته مع تاريخ الاسلام .. مما دفعه الى تأليف الكتب ، ويفسر القرآن ، ويكتب عن الأحاديث النبوية .. وكتبه فى هذا المجال كثيرة مختلفة الاتجاهات . كذلك حقق كتباً من التراث الاسلامى .. وفى رحلة الحياة " نجنى من الشوك الثمار ، تنال بالـ / ايمان أحلى ما يكون لحامدِ " .

(٤) شعره العام أكثر من الخاص :

فينظم الشعر فى البطولات والأمجاد ، وسير رجال الاسلام ، ويتغنى بأمجاد الوطن وانتصاراته . ويكثر شعره فى هذا المجال ، ويقل فيما يخص الجانب الوجدانى ، المعبر عن ذاته . وان كان شعره كله مرتبطاً بالقضايا العامة ، لأنه كمثقف يؤثر التعبير عن صالح الأمة ، ويرى فى ارتباطها بالثقافة العربية هويتها المتأصلة عبر التاريخ ، عنصر حياة ، بعيداً عن التغريب ، بالاتجاه الى الغرب . ويردنا توجهه الدينى الى عهود قديمة ،

تعكس المعنى الذى وقف عليه عمره (١) :

ذكـــرى وأيـــام لنـــا سلفـــت عشنـــا بهـــا فـى العسر واليســـر

وحديثها العذب الجميـــل غـذا ء الروح ما أحلاه فى الذكـــــر

(٥) تقودنا النزعة الايمانية الى القول بأن الدكتور خفاجى قدم شعراً اسلامياً، سواء على مستوى الموضوع ، بتناوله سيرة الرسول الكريم ، أو شخصية اسلامية من الخلفاء أو القادة أو الأئمة . وتناوله غزوات الرسول وأحداث التاريخ الاسلامى . أو على مستوى الفكرة . فالمضامين كلها تشى بالتوجه الاسلامى فى كل وقت . فالخفاجى فى شعره يدعو الى القيم والفضيلة ، والى الخير والتسامح والسلام ، وما الى ذلك من قيم رفيعة تفيض بها بحور شعره وكلها تنبع من تعاليم الاسلام ، أو على مستوى الصياغة ، فنجد الاستيحاء الدينى ، والتأثر بالأساليب القرآنية ، أو على مستوى قاموسه الشعرى ، فنجد مفرداته مقتبسة من القرآن والحديث . .

والخفاجى شاعر اسلامى ، حتى حين يتغنى بوطنه مصر ، فانه يستدعى الوطن بقيمه وآثاره الاسلامية وأزهره الشريف وزعمائه المصلحين. لذا لا مشاحة أن الخفاجى قد أثرى الأدب العربى بشعره الاسلامى النابع من توجهاته ودوافعه . يقول الدكتور عبد العزيز شرف عنه : " والأدب الاسلامى فى رؤيا الدكتور خفاجى الابداعية ينتمى الى الاسلام ويستمد جميع أصوله منه ويتأثر به وحده فى كل شىء فى ألفاظه وأساليبه ، فى معانيه وأخيلته ، فى صوره ومرائيه ، فى أفكاره وثقافته ، فهو أدب يستمد أفكاره وقيمه من الاسلام ، وينسج على منوال القرآن الكريم ، وله رسالة

(١) خفاجى :أنشودة الى الغد ـ قصيدة (كم كانت الأحلام) ـــ ص ٢٤ .

كبيرة وبخاصة فى عصرنا الحاضر ، فهو يعمل على ايجاد يقظة اسلامية ووعى اسلامى ، ويقف فى مواجهة الأفكار الغربية الموجهة • (١) .

وشعر الخفاجى شعر اسلامى بالدرجة الأولى ، (٢) شعر اسلامى قلباً وقالباً ، فى الأسلوب والصياغة ، فى المفردات ، وفى الصور والأخيلة ، وفيما ترمى اليه القصيدة من دوافع الخير . ولا يتصور الخفاجى وأضرابه من الأدباء الاسلاميين أن ثمة تعارضاً بين التنادى بالتعاليم الدينية ، والتصوير للأدب ، وذلك لأن الأدب يدعو الى القيم والأخلاق ، من غير وعظ وارشاد . فمن غير الممكن أن تكون الصورة الأدبية راقية سامية ، وتدعو الى شىء نبيل ، وتثير - فى الوقت ذاته - تساؤلات ، وتعمل على أدهاش المتلقى وامتاعه ، وترمى - أيضاً - الى قول مسف وصور مبتذلة فجة . وطالما يهدف الأديب الى الأرتقاء بالانسان ، ولا يتملق غرائزه كان ذلك أقرب الى الأدب المنشود الرفيع . ولعل توفيق الحكيم ، فى تعادليته، لا يجد ثمة تعارضاً بين الفن والدين .

فالفن يبنى الانسان ، ويغير من حالته ، ويدفعه الى الخير . والفن يرقى بمشاعر الانسان ويهذب غرائزه ، وكل هذه المعانى لا تخاصم الدين ولا تعاديه بأى حال من الأحوال ، وانما هى تقترب من الدين وتدين به .

---

(١) د. زهران محمد جبر : صفحات من الفكر المعاصر ـ ص ١٦٥ .

(٢) حسنى سيد لبيب : مقال (الدكتور خفاجى ـ شاعرا اسلايا) ـ مجلة (الخفجى) ـ يوليو ١٩٩٣ـ ص ٥٤ / ٥٥ ، ونشر أيضا فى كتاب الدكتور خفاجى (فى آفاق الفكر الاسلامى) ـ رابطة الادب الحديث ١٩٩٦ ـ ص ٧١ / ٧٤ .

الخفاجي .. شاعراً إسلامياً

الدكتور الخفاجى ، صاحب الدراسات الأدبية والتراثية التى تضمها مؤلفاته كثيرة العدد ، هو شاعر إسلامى متميز ، فما من قصيدة له إلا ونلمس النزعة الايمانية تعطر شعره ، تلك النزعة هى صمام الأمان لنفسه ، تعصمه من الزلل ، وتحدد اتجاه ابداعه ، فينتقى الكلمات مثلما ينتقى الجواهرى درره وقلائده . فتنساب أبياته الشعرية فى سلاسة .

وطلاقة ، مثلما تنساب المياه الصافية فى جدول صغير ، ومن حوله تنبت أزهار الفل والياسمين ، ومن فوقه تحلق أطيار المنى فرحة طربة بالشعر المستوحى من تاريخ الإسلام وتعاليمه السمحة .

ونظرة الى ديوانه الموسوم (أشواق الحياة) ، نجده يحتفى بأمة القرآن، ويستخلص العظات من الهجرة النبوية الشريفة ، ويستشرف معانى ديننا الحنيف بعد مرور أربعة عشر قرناً على الهجرة ، وعينه على الأزهر الشريف بتاريخه الحافل ، وغيرته الشديدة على لغة الضاد ، لغة القرآن الكريم . وكما أن لكل شاعر ثوبه الذى يناسبه ويزهو به ، فقد تزيى الدكتور الخفاجى بالزى الإسلامى ، وعبقت روحه بأريج السيرة العطرة ، فيصوغ قصائد أغنيات دينية تسمو بها النفس . . من هذه القصائد : (انسان القرآن) ، (إنسان الاسلام العظيم) ، و(موكب علوى) ،و(مهرجان الحق)، و(أغنية إلى عرفات) ، و(شعوب الإسلام) و(أمم تطوى) ، (والغد الباسم) ، و(ملحمة الأجيال) ، و(رحلة التاريخ) و(الأزهر) ، و(ياحماة الضا)، و(يادار حبى) ، و(ملحمة الضياء) ، و(ملحمة زاهد يحترق فى النور)، و (الأزهر العظيم) .

و(أشواق الحياة) هو أحد الدواوين العديدةالتى أصدرها ، بدءا بديوانه (وحى العاطفة) الذى صدر عام ١٩٣٦ .كما نشر بعض أشعاره فى كتبه الكثيرة ، نذكر منها : (الشعر والتجديد) و(مع الشعراء المعاصرين) و(مواكب الحياة) وغيرها .

فى صدر ديوانه (أشواق الحياة) ، تحت عنوان (انسان القرآن) قصيدته :

أقــرأ .. ويا لك من شعار أعظم — أقرأ .. شريعـة مرسل ومكــرم

أقرأ .. يعلمـك الـذى بجلالــه — قـد علـم الانسـان مـل لم يعلـم

أقرأ .. نداء رن فى أذان الوجــو — د نـداء عصـر عبقــرى ملهـــم

أقرأ .. وتبـدأ رحلة الدنيا إلـــى — عصر الحضارة والكتاب المحكم

وقد آثر الدكتور خفاجى أن يستهل ديوانه بهذه القصيدة ، التىتبدأ أبياتها الأولى بالنداء الألهى (أقرأ) الذى توجه به سبحانه الى سيد المرسلين محمد ﷺ . وقد دلنا مفتتح الديوان على مضمونه ، كما دلنا على مفتاح شخصية شاعرنا ، الذى وقف عمره فى خدمة الأدب الاسلامى، ابداعاً وبحثاً ونقداً وفى خدمة تراث أمة القرآن .

يصدر الشاعر ديوانه بتعريف يقول فيه :

(أشواق الحياة) يتضمن ألواناً من الشعر الإسلامى والشعر الانسانى، والشعر الوطنى . . والشعر الوجدانى والعاطفى،يصدر جامعاً لقصائد عديدة مختلفة فى تاريخ نظمها ، ولكنها متحدة فى الروح والفكر والذاتية " .

يتوجه خفاجى بشعره الى الشعوب الاسلامية ، مذكــرا اياها بتاريخ

الاسلام، وفتوحاته العظيمة ، ويستوحى السيرة العطرة ، يتوجه إلى عرفات بقصيدة تتغنى بذكرى التضحية والفداء ، ثم يتحدث إلى المسلمين فى شتى بقاع العالم ، فى بدايات القرن الخامس عشر الهجرى ، وحين ينتابه الأسى على حاضر أيامنا ، يستشرف (الغد الباسم) الذى يحلم به وقد قوى الإيمان فى قلوبنا ، وبه نستطيع تحقيق الآمال وبلوغ المراد . كما يستعرض تاريخ مكة المكرمة . وما أكثر نداءاته الحرى الى روح نبينا الكريم، وتأثره بسيرته العطرة .

ملحق بالكتاب

« المعجم الشعرى عند الخفاجى »

بقلم د ـ هيام محمد السعدى

المعجم الشعرى للخفاجى مرتبط أشد الإرتباط بنفسه وحياته ، بل إنه أكثر دلالة على هذين العنصرين الكبيرين المكونين للمعجم فى شعره . وأول الألفاظ التى يستعملها الشاعر لفظ « الحُلْم » ويليه لفظ « الذكرى » فالحلم يستعمله كثيرا فى شعره ، بل وفى أسماء دواوينه مثل : أحلام الشباب أحلام السراب . أحلام الذكرى ، أحلام المساء ، أحلام الأمس ، ويقول من قصيدته « كم كانت الأحلام » « ص٢٣ ديوان أنشودة الى الغد

يا كم سهرنا الليل ننسجــه   حلما ، وحتى مطلع الفجــر
كم كانــت الأحلام تدفعنا   لنـقود كل مـواكب النـصــر
أحلامنا إن بددت وصلت   بـسداد رأى فى الدجـى المـرّ

ويقول من قصيدته « كان حلما » : ص١٣٥ . ديوان أحلام الذكرى :

كنتِ كل الرؤى وحـلم اللـــيالى   فى شـبابى بجانبـى والمــشيب
يا فؤادى الحلم الجميل انتهى والـ   أمل الدانــى صـار غــير قريــب
قد مضت أحلامى وشمس حياتــى   فى وداع ضافـى الجـلال مهـيب
كان حلـما أنفقــت منه وذكــرا   ه تــتادينى فى الضـحى والغـروب
وبيــومى وفى غدى سـوف أحيا   فى رؤى أمس فى صداه الحـــبيب

استعمالات الحلم تدل على شقاء الشاعر وعذابه من واقع حياته المر

وأنه لا يجد السعادة إلا فى الأحلام ، ويقص فى الكتاب الذى صدر عنه للدكتورة الاستاذة سهير جاد بعنوان « أحلام الاعلام » قصة حلم جميل له.

ولفظ الذكرى كثير فى لغته الشعرية ومن أسماء دواوينه : نشيد الذكرى ـ أحلام الذكرى ، أصداء الذكريات ، ويقول فى ديوانه أحلام الذكرى » ص ١٣٥ :

ليس لى فى الدنيا سوى الألم الدا   مى سوى الذكرى ، ثم عيشى الكئيب

الذكرى عنده تعنى ماضيا حلوا سعيدا ، هو ماضى طفولته حيث الحياة لوالده يسر ، وحيث الشعور بسعادة الحياة فى ماضى الطفولة ، ثم تستحيل الحياة بعد ذلك إلى كفاح وتعب وعرق وجد لا لعب فيه

ويأتى بعد ذلك لفظ الشوق ومن أسماء دواوينه « أشواق الحياة » وكانت والدته تسمى . . «شوق خفاجى » فلعل ذلك لغة الوفاء لذكراها الكبيرة.

كما يجئ لفظ النشيد إيمانا منه بأن الشعر غناء وموسيقى قبل كل شئ . . معجم الشاعر الشعرى هو حياته هو نفسه وروحه ووجدانه قبل كل شئ ويقول المستشرق الكبير عبد الكريم جرمانوس عنه : الخفاجى عاش طول حياته فى محاولات مستمرة للكشف عن ذاته ، وللبحث فى اكتشاف نفسه. . ثم يقول : عرفته فعرفت فيه الكفاح بكل معانيه (وص ٥ عاشق المعرفة ـ صدر فى القاهرة) .

الشخصية التراثية فى ديوان « أغنيات من عبقر »

للدكتور / على على صبح

اشتهر وادى عبقر بالتفوق والإبداع للجن ، ومن تشبه بهم من الأبطال الشجعان الذين قاموا بأعمال فوق طاقة البشر ، وجاء ديوان الشاعر الدكتور/ محمد عبد المنعم خفاجي يحمل عنوانا تراثيا يرجع فيه إلى عبقر ، ليعود بالشعر الحديث إلى حقله الخصيب وتراثه الخالد ، فمنه تفجرت ينابيع الشعر العبقرى ، وفى ساحته استقامت اللغة العربية وتهذبت متونها وتنافس عباقرة الشعراء فى سوق عكاظ وانعقدت القبة الحمراء ليحتكم إليها الشعراء، وعنها كتبت المعلقات بماء الذهب .

من عبقر استمد الشاعر ينابيعه الشعرية العريقة من روافدها ليعيد إلى الشعر العربى الحديث إشراق الديباجة وجزالة الألفاظ واستقامة الوزن وعذوبة القافية ورتابة الإيقاع وروعة الصورة وشرف المعنى ونبل الغاية والأغراض .

من عبقر تغنى الشاعر وهو يعيش أحداث عصره فى تجاربه الذاتية ، تغنى بأغنيات فى تجارب معاصرة لنماذج إنسانية رفيعة عاشت عصرها لتؤدى دورها الحضارى ، وهذه التجارب فى الديوان نبعت من وجدانه الصادق ، واستمدت روافدها من مخزونه الشعرى والتراث العريق الذى اتسع له أكثر من خمسمائة كتاب نحتها من تراثنا اللغوى والفكرى والتاريخى، فكانت شخصيته التراثية فى كل لفظة وأسلوب وصورة وبناء فنى وقالب شعرى خليلى ليصل الحاضر بالماضى موصولا فى أصالة وانتماء وعراقة واتزان مع كل جديد ، يتلاءم مع القيم الفنية والخلقية الحضارية فيعيش

المبدع والقارئ وهو مملوء بالوفاء والاعتزاز بتراثه ولغته وأدبه وحضارته الفكرية والإسلامية التى تتجاوب مع الحياة فإذا تحدث عن مصر رأى أنها جزء من الوطن الإسلامى الكبير :

أنا ابن حضارات سمت عشتها فى عزة يا وطنى
أنا افديك تراثا خالـدا ملأ الدنيا سنا من قـدم

وحمل الأزهر فى أصالة وعراقة رسالة الإسلام فى صمود ، ولازال محراب العلم واللغة والدين :

الأزهـر المعـمور هـذا مـجده هو حارس الإسلام لـم يستسلم
فى ألف عام ظل ضـوؤك باهرا وعلى العصور لضوء هديك نتتمى

وأحيت العراقة والأصالة قلب الشاعر الذى يخفق بالحب الصادق لزوجته التى رحلت عنه فى وفاء وانتماء :

كانت مناى وطـيف أفراحـى وكل سعادتى فى وحدتى وعذابى
سأظل أمسح بالدموع معازفـى شوقا إلى الأحـباب والأتـراب

الخفاجى فى أشواق الحياة

للشاعرة جليلة رضا

عندما يكون الناقد لدراسة أدبية ما « سيدة » ويكون المنقود « رجلا » وعندما تكون هذه السيدة شاعرة لا تملك غير عدة مجموعات شعرية بينما المتلقى نقدها كاتبا وأديبا قد صال وجال فى عالم الأدب وملأ المكتبة المصرية بمئات من المؤلفات الضخمة القيمة .

ما الذى ـاذاـ تستطيع قوله تلك المقتحمة أبراج هذا العملاق الأديب.

غير أنى أستطيع أن أقول الكثير بعد أن قرأت ديوان « أشواق الحياة » للدكتور خفاجى وأن أمضى فى مقالتى بلا رهبة وتردد .

فالديوان هو الذى يهيب بى أن أكتب ولا سبيل إلا الطاعة .

وديوان « أشواق الحياة » وان كان يعد الانتاج الشعرى السادس غير أنه يعد الديون الأول فنا وأصالة ونضجا . .

هو القفزة الأولى لصاحبه نحو القمة . .

« هو الوليد الذى جاء الحياة معلنا ميلاد والده » .

واليوم ، اليوم فقط يستطيع كل قارىء للديوان أن يشير الى صاحبه ، هذا شاعر ، وشاعر كبير . . فلقد عرفنا جميعا الدكتور خفاجى أديبا أمينا فى بحثه دقيقا فى نقده ، رائدا يجمع بين النبوغ الأدبى الأصيل والثقافة الواعية ، مع غزارة فى الانتاج بلغت حد الدهشة مما جعل اسمه لامعا وسط الحقل الأدبى بحصاده الوفير الجيد .

أنه حصاد متنوع الألوان . ذو قدرة كافية على التقدير وطاقة وافية على التبرير ولكن . .

أجل . . ولكن :

ترى ما الذى جرى للخفاجى صاحب المئات من المؤلفات النثرية كى يميل أخيرا بكل ما فيه من قوة نحو الشعر ؟

فنظرة اليوم الى دواوينه المتتابعة تجعلنا نعترف أخيرا بشاعريته بعد أن ظلت طويلا متوارية وراء الغمام .

نعم . . لقد حدث انقلاب خطير فى شعر الخفاجى . وديوان « أشواق الحياة » خير دليل على هذا الانقلاب فكما تغيرت اتجاهاته ونظرياته تغيرت أيضا موضوعاته وصياغته .

لم يعد شعر الخفاجى يعتمد فقط على الرصانة والجزالة بل انتعشت فيه الروح الوثابة المتطورة وصفقت فى سمائه الطيور المجنحة المغردة ، ورقصت عبر سطوره الموسيقى بعنفها وهدوئها وأنغامها المتعانقة .

ومجمل القول . لقد بلغ ديوان « أشواق الحياة » درجة من السمو الفنى مما أغرانى أن أكشف عن وجهة نظرى فيه ولعلنى بذلك أسهم فى امتاع القارىء ببعض أبيات من قصائد الديوان .

وأول ما يصادفنا فى هذه المجموعة الشعرية تلك القصائد الوجدانية العديدة التى احتلت ما يقرب من نصف الديوان وهى فى الحق قصائد فنية رائعة ولعل جمالها ينبع من صدق تجارب الشاعر ورقة احساسه .

فقد نزع الخفاجى أخيرا ذلك القناع الدائم وألقى به بعيدا عنه حتى

يتمكن من استعادة ذكريات شبابه بما فيها من لوعة وأمل ووصال وفراق . كل ذلك فى جرأة وحماس غريبين علينا فخرجت تلك القصائد عارمة هادرة مشبوبة تفيض جمالا وعذوبة .

وكنت أحب أن أقف أمام رائعة الديوان وهى قصيدة « أيام وأحلام » غير أن الناقد الكبير الأستاذ عبد العزيز شرف تكلم عنها بما فيه الكفاية فى مقدمة الديوان ولعلنى أستطيع فى فرصة أخرى أن أتكلم عن قصائده الوجدانية « صدى الذكريات » و « شقاء الحب » و « صوفية الحب » و «فلسفة الجمال » و « لحن الروح » وغيرها الكثير حيث لم يترك الخفاجى صغيرة ولا كبيرة الا دونها شعرا .

ولنستعرض بعد ذلك مع القارىء الكريم أجمل وأغلى ما فى الديوان وهى القصائد الدينية السامية التى تتحلى بها المجموعة الشعرية للدكتور خفاجي . لقد ضمت كل المناسبات الدينية الجليلة فمن قصيدة « انسان القرآن» حيث يقول فيها :

اقــرأ : وتهــتــز السمــاء يقـولهــا

وحـى مـن اللـــه العـزيـز الأكــرم

يا ليلة الوحـى العظيم . عن الرسالـة

والرســـول . عـن الكـتـاب تكلمــى

ثم الى القصيدة « انسان الاسلام حيث يقول :

مسلـم فوق العـلا جبهته

خاشع فى عـزة المنتــصـر

بين يمنـاه كتــــاب نيـــر

بالآيـات الكـتاب النـــيـر

ثم يتجه الى الهجرة حيث يقول فى « موكب علوى » .

هجـرة مثلـت جهـاد نبـــى

وأمين على الهـدى مهـدى

ويتوقف الشاعر قليلا وقد أحس أنه عاجز عن اهداء هذه الهجرة المباركة حقها فى البيان فيهتف :

لا تقـل شيئـــا .. كـل مـــا قلتـه

دون علاهـــا وحقهـــا العلـــوى

انهـــا الصفحـــة المضيئـــة فـــى

التاريخ تهدى الى الهدى كل حى

لا ورب الجـــلال انـــى عيـــى

وبيانـــى يـــا قـوم جـــد عيـــى

وعلى « جبل عرفات » يناجى الشاعر أجمل ساعات حياته .

عرفـــات يـــا أمـــلا بـــه الأيـــام

تحلـو .. ومنـــه الوحـــى والالهـــام

وتمر بالشاعر ذكريات عرفات ويشعر بالحنين الطاغى الى العودة للمكان المقدس ويهتف شوقا قد خيل إليه أن سفح الجبل أمام ناظريه وقد ماج بالشذا والبشاشة كعادته فيتساءل :

ووقفت أدعو ، والدموع تنوشنى

أحقيقة هى أم هى الأحلام

وأفقت من حلمى وبين جوانحى

من نار حبك والزمان ضرام

ولقد لفت نظرى فى ديوانه « أشواق الحياة » كثرة الشكوى من الزمان والانسان وكان يخيل الى دائما أن صاحبه قد خلا الا قليلا من الآلام أو بالأحرى رضى بحظه منها فكثيرا ما أراه باسما وقد سكن الى حكم الله عن ايمان وتقوى .

فلنستمع اليه فى قصيدة « سراب » ولنر كيف استهلها بهذا البيت الموسيقى الرائع :

وى لأمسى ولأيامى وى

ولليلى ونهارى العبقرى

المنى كل المنى قد ذهبت

وتلاشت بددا من راحتى

وبقايا الحلم كانت بيدى

أين ما كان قريبا فى يدى

وسراب كاذب يخدعنى

كلما سرت ويعشى ناظرى

ان ديوان « أشواق الحياة » مغلف بالأسى ومرارة الحزن والتبرم من

الحياة ففى قصيدة « هموم الفكر » يثور شاعرنا على أخلاق هذا العصر فيتساءل :

بكيت ويضحك القدر

ونمت وغيرنا سهروا

وقلت مناجيا نفسى :

لماذا كان لى بصر

لماذا كان لى عقل

لماذا كان لى نظر

وشعر الخفاجى فى ديوان « أشواق الحياة » يجمع الى الامتاع الافادة والتوجيه فقد تناول الكثير من الأغراض الاجتماعية والموضوعات المتصلة بالوطنية.

وقد تمكن من التعبير عن حقائق دنياه فى مرونة وحيوية فوفق فيه الى الابانة عما يجيش فى نفسه من آمال وآلام . وهو شعر واقعى شامل صريح لا يعرف الغموض ولا الصور الضبابية .

وهو هنا بكل بساطة وسهولة يقول فى قصيدة : « الوداع الأخير »

اركنى للصمت يا ذكرياتى

أنت نور فى دجى أمسياتى

بين أحلام المنى الماضيات

كل شىء قدر يا حياتى

ومن موضوعاته المنوعة المليئة بالتجارب الحية قصيدته « أقتات السراب» وهى موجهة الى والده المتوفى فيقول :

مـــا زلت أذكره هنا .. وكأن ذكراه المنى

ولى كما ولى السحاب وكان شيخا مؤمنا

ويتذكر والدته وتثير الذكرى شجونه وهو الانسان المرهف الاحساس فيقول فى قصيدة « أماه » . .

أمـــاه لا هـــم ولا حـــزن

مثـــواك دار المنتهـى عـــدن

هكذا هى الأم دائما مهما كبر الأبناء ستظل ذكراها عطرة فى أذهانهم وقلوبهم بقدر ما أعطت وبذلت من الحب والحنان والتضحيات .

وأشرق الكون بميلاد « ماجد » الوحيد وعانق والده كل أمانى الحياة وزهور العمر .

مـاجد : يـا ضـوء القمـر

يـــا فخـر يومـى المنتظــر

واحـــــة آمـــالى أنـت

فـى متاهـــات السفـــر

وجئت كالمنـــى وكالنصـر

أتـــى عـــــلى قـــدر

واعشوشبت بك الحيـــاة

وارتــوى بــك الثمـــر

واخضـر عشــنا وكـــان

العش مجـدب الصـــور

ويهمس الأب فى سمع وحيده بقصته كلها فى أبيات تفيض رقة وعذوبة ، وانه لشىء جميل حقا أن يعترف الوالد لابنه بما قاسى قبل مولده وانه لشىء جميل حقا أن يدعو له بكل ما كان يتمناه لنفسه من أمانى فى دنياه يقول :

دنيـاى يا ماجد كلها فصـول مـن عبـر

حتى أتيت كالضياء فى دجى العمر سفر

فكنـت متعـة السنين بـل ربيعهـا العطـر

ولقد حرصت حين بدأت الكتابة عن ديوان « أشواق الحياة » على النظر اليه من جميع زواياه فى دقة واعتدال رأى بعد قراءة واستيعاب .

لذلك لم أصب اهتمامى كله على الناحية الجمالية بل تعديتها الى المضمون وقوة الأداء بجانب الموضوعية فالشاعر الخفاجى يعد أحد أبناء مدرسة « أبولو » التى لها خصائصها ومقوماتها ، غير أنه أكثر ميلا الى الأقدمين ممسك بأوتار الشعر فى أزهى عصوره من حيث قوة الصياغة وجزالة اللغة ووضوح المعنى ومراعاة الأنماط المختلفة من تراثها القيم .

ولذلك فليس هناك من خوف مطلقا أن يضيع الديون فى زحمة الكتب التى تملأ الحقل الأدبى دون أن يجد الناقد البصير الذى يكشف عن قدره

وقيمته . فالديوان أولا وأخيرا يدافع عن نفسه ويشق فى وثوق طريقه بلا حرج أو تردد يحدوه الصدق والايمان به فشاعرنا لا يكتب غير ما يفيض به خاطره ووجدانه . والدليل هو تلك العاطفة المحتدمة التى تنبض فى كل ما يصادفنا من قصائد فى ديوانه .

ويعتز الشاعر بالأزهر الشريف ، الأزهر الذى هو صوت مصر فى صدى طلابه ، والناطق بكل حكمة وهداية ، فمن الطبيعى أن يلهج به فى قصائده الجميلة.

إننى ما زلت أقول . ان الخفاجى أديب كبير قبل أن يكون شاعرا وقد استنزف أيامه فى مزاولة الأدب فى أسلوبه النثرى مما أكسبه اتقانا وبراعة وأصالة فلما زاول الشعر وتمرس جاء ديوانه « أشواق الحياة » وفيه من شفافية الروح ما جعل قارئه يكاد يرى صاحبه من خلال السطور .

وقبل أن أختم مقالتى أحب أن أذكر « ملحمة زاهد يحترق فى النور » وقد استطاع الشاعر أن يشدنى اليها ولعلنى أستطيع يوما أن أجد الحيز الذى يسمح لى أن أتكلم عنها فى استفاضة واسهاب ، فهى حوار بين ابليس وزاهد من الزهاد .

ويقول الخفاجى عنها فى ديوانه.

« لقد سجلها قبل ذلك الغزالى وتوفيق الحكيم ولكنهما سجلاها نثرا وكتبتها أنا شعرا .

وبعد فإن كان الشعر ـ كما يقول الخفاجى فى نهاية ديوانه هو روح الشاعر ونبض قلبه وحديث وجدانه . وإن كان الشعر ـ كما يقول صاحب الديوان هو الخلد والأعماق والتراث الباقى لصاحبه فهنيئا لنا نحن القراء فقد ضم ديوان « أشواق الحياة » أعز ما يملك وأغلى ما يقدم لنا الشاعر الكبير.

ديوان أغنيات من عبقر

للناقد أحمد زكى عبد الحليم

نحن نقف أمام استاذية الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى بانحناءة تقدير فى أى مجال يكتب فيه ، باعتبار أنه واحد من فرسان الكلمة الذين أقاموا قواعد هذا البيت الثقافى المصرى الذى نستظل جميعا به ونرتوى من ينابيعه ، فهو أحد رواد عصر العباقرة ، حيث كتب فى زمان طه حسين واحمد أمين وعباس العقاد وأحمد حسن الزيات وغيرهم من العمالقة ، وما زال القلم فى يمينه يعطيه حقه من الاستاذية ، ولعلها مناسبة أن اقول اننى قد أحببت وقدرت الدكتور خفاجى على البعد ، فلما اسعدتنى الأقدار واقتربت منه ، أحببته أكثر ، وقدرته أكثر وأكثر . فهو فى تواضع شديد يفيض على الأخرين من نهر علمه العذب العزيز .

وديوان اغنيات من عبقر لشاعرنا وأديبنا الكبير ، وكان ديوانه الأول قد صدر فى عام ١٩٣٦ تحت عنوان « وحى العاطفة » ، ثم جاء بعده ديـوان «احلام الشباب » ، فلما تقدمت الأيام كانت له « صلوات على الضفاف » ، وأكد من بعده أن « أشواق الحياة » متجددة فى قلبه ، ومن فيض ضميره ونبله قدم لنا « الديوان الإسلامى » ، ثم جاءت اغنياته الأخيرة التى جاوزت الاربعين ، لتقطف لنا من كل بستان زهرة . فهو يتحدث عن مصر ، وعن الوطنية ، وعن عيد سيناء ، وعن ذكرى دنشواى، وعن عروس النيل . وهو كذلك يصحبنا بعواطفه الى ذكريات الماضى ، والى يوم الميلاد، والى لحن الروح ، ثم ينشد نشيد الذكرى وهو يتحدث الى الطيف الباسم .. ونصل معه الى مجاله الأصيل وهو مجال الانسانية والوفاء والاخلاص ، الذى

يحدثنا من خلاله عن محمود سامى البارودى ، وأحمد لطفى السيد ، وعباس محمود العقاد ، وأحمد زكى أبو شادى وعلى محمود طه ، وكوكب الشرق أم كلثوم ، وغيرهم .

وقد أهدى شاعرنا الكبير ديوانه الى : القلب الحنون الذى أظلنى بحنانه وعطفه وحبه أربعين عاما ، ثم ولى وغاب ، كما يغيب الشهاب فى دجى الليل . الى زوجتى الراحلة .

« الاثنينية» عكاظ العصر

مهداه الى الاستاذ الكبير عبد المقصود خوجة

من شعر : الخفاجي

هــذه (الاثنينيــة) الشَمــاءُ — قبست مـن لألائهـا الجــوزاءُ

شاد (عبد المقصود) منها عكاظا — يتنــادى لضوئـه البلغــاءُ

يتبــارَى الفحولُ فيــه طويـلا — ويحيِّــى شموخَـه الأدبــاءَ

مجمـعٌ للآداب والفكـر ســامٍ — فتحـدثْ عـن مجـده مـا تشـاءُ

قبس باليفَـاع شــَبَّ فجئنـــا — د عليــه مـن الجــلال رُوَاءُ

فى محيَّاه يشرق البشرُ والحــبٌّ — ويسرى فى وجنتيــه البهــاءُ

ذاع للإثنينيــة اليـومَ ذكـــرٌ — عبقٌر ضــاع مـن يديها اللــواءَ

ورثنْهـا فى مجدهـا ، فصداهـــا — تتهـادى بسحـره الأصـــداء

هــذه الأمسيات طابت هنيهـــا — تٍ بها طـار فى الفيافى الحــداءُ

سهرتْ (جدةٌ) لها ، وارتـوى من — نبعهـا العـذب المـاءُ والصحـراءُ

وتناهـت عيـن الزمــانِ إليهـــا — واستـدارت ترنو لهـا الشعـــراء

وأحييهـا بالبيـان وبالشعـــر — وروحـــى لمتداهـا الفـــداء

(خوجة) نادانـا إليهـا نبيـــلا — ونعمــاً فى الفكر هـذا النـــداءُ

أأنـا اليوم بينكم يــا رفاقـــى — أم أنـا ضَمَّتنى إليهـا السمـــاء

(امروُ القيس) بيننا و(أبو الطيـ ـب) نـــاداه نورهـــا الوضـَّاءُ
وأتى (الجاحظُ) المشـوقُ إليهـا وسعى نحـو ضوئها الحكمـــاءُ
وهنا (التوحيدى) يقص على (العا رض) من سحـــر قَصِّه مـا يشـاءُ
حبهـا قـــاد العاشقين إليهـــا مثلمـا قـادتْ (عـروةً) (عفـــراءُ)
أيهـــا الرائـدُ الوفىُّ عرفنـــا كَ كمـا قد شـاءَ النهـى والوفـــاءُ
جُهْـدكَ المضنى نافس الغد فيـه اليـومَ ، بـل نافس الصباحَ المسـاءُ
حبـذا مـا أديتَ للجيــل مـن زا دٍ به يحيـا فى الحياة الرجـــاءُ
آه لو (شوقى) كان فى عصرنا حياً تكَ منـــه قصيدةٌ عصمـــــاءُ
و(زهير) لو عـــاد حيَّت حشـودَ الشعـــر عنـــه حوليـةٌ عـذراءُ
و(جريـر) يهتـــزُّ فى رمســه تبـ هره (الاثنينيـــةُ) الغـــــراءُ
و(أبو تمام) يـرى كيف ضـاءتْ بسنـا النـادى الليلـةُ الظـلماءُ
يـا أحبـاء الفـكرَ عشتم طويــــلا أنتـم الــودُّ والسنـا والسـنـاءُ
والوفـاءُ المنشود ، والمحتد التـا لدُ ، والحـب ، والوجوهُ الوِضـــاءُ
كل فضـل لفضـــلكم منتهـــاهُ أيهـا الأصفيـــاء والأوفيــــاءُ
فاض منكـم على البيـــان نميـــرٌ مثلمـا فاضَ من ذُكـاءَ الضيـاءُ
كيف يوفيكم حقَّكـم مـا يقـولُ الشـعرُ أو مـا يُدَبِّجُ الفصحـاءُ
منتـدى الصفـوة الكـرا م يحيــــ ـكَ على القرب والنوى الكرمـاءُ

مــــرحيــا أيهـا النـدى نبيــــــلا قـد ترامـت بفكـرك الانبـــاءُ
من لياليكَ الدهـرُ صافٍ ، وفى حسـ نكَ تختـال الغـــادة الحسنـــاءُ
هـذه (جدة) المفاخـر سِفـــرٌ خط فيـه ربٌّ العـلا ما يشــاءُ
حدثتْ عنها ، عن بطولاتهـا ، الدنـ يـــا ، ويروى تاريخـها الآبـاءُ
بين افريقيــا وآسيــا شعـــاعٌ وصلتـهُ بجـانبيهـــا السمـاءُ
فى محياها البشر يحكى حكايـا ها مدى الدهر ، والمنى ، والثناءُ
ملءُ وجدانِ النازحِ الصبِّ يـأوى فى حنين لظلِّـــها الغــــرباءُ
(جدةَ) المجـد يـا مدينتنـا المسـ حورةَ اقتـادنا إليـكِ الإخـــاءُ
دميـــةٌ أنتِ من جمـال وسحـــرِ وعلى وجهـكِ الصبوحِ الرواءُ
أنتِ ليــلاىَ ، في خلــــدى أنـ تِ وفي مهجتـــى ، وليلى ســـواءُ
عشتِ للشـعر والبيـان طويــــلا وعلاكِ الجمـالُ والأنـــــداءُ
يخطرُ الدهــرُ فى سناكِ ، ويعلـــو هامَكِ الغارُ والمنـــى ، والصفاءُ
إيهٍ يــــا (جدةَ) السلامِ ســـلام وعليـكِ الجلالُ والأضــــواءُ

**

الفهرس

الموضوع	الصفحة
ـ إهداء	٢
ـ تصدير قلم المفكر الكبير الأستاذ البشير بن سلامه وزير الشئون الثقافيه فى تونس	٣
ـ كلمات للخفاجى	٥
ـ ملامح شخصيه	٦
ـ الخفاجى الشاعر	١٣
ـ أراء الخفاجى فى الشعر	١٦
ـ خصائص فنيه للقصيده فى شعر الخفاجى	٢٠
ـ البناء الفنى للقصيده عند الخفاجى	٣٥
ـ إستدعاء الصوره	٣٩
ـ الزورق الحائر	٤٣
ـ غربة الشاعر	٤٧
ـ شاعر يعيش فى دائرة الحلم	٥١
ـ شاعر الملحمه النبويه	٥٨
ـ البحث عن الجذور	٦٤
ـ مصر التى فى موهجته	٧٠
ـ عودة إلى رسم ملامح الشخصيه	٧٦

الفهرس

الموضوع	الصفحة
ـ خلاصة التجربه	٨٣
ـ الخفاجى شاعراً إسلامياً	٨٧
ـ ملحق بالكتاب	
ـ المعجم الشعرى عند الخفاجى	٩١
ـ الشخصيه التراثيه فى ديوان « أغنيات من عبقر »	٩٣
ـ الخفاجى فى أشواق الحياة	٩٥
ـ ديوان أغنيات من عبقر	١٠٤
ـ « الأثنينيه » عكاظ العصر	١٠٦

رقم الايداع بالهيئة العامة
لدار الكتب والوثائق
القومية ١٤٠١٧ / ٩٧